تهافت الفكر المادي

محمد عيد

RIDA

❖ **العنوان**: تهافت الفكر المادي

❖ **المؤلف**: محمد أحمد عبيد

❖ **تاريخ النشر**: الطبعة الأولى – يوليو 2022م

الناشر: منصة ريدا الثقافية (تابعة لشركة ريدا مصر للمحتوى الإلكتروني)

سجل تجاري: 188425 - بطاقة ضريبية: 373 / 229 / 693

المقر الرئيسي: 52 شارع الطيران – مدينة نصر – القاهرة.

- **يمكن الحصول على الكتاب ورقيًا من خلال منصة ريدا الثقافية:**

١- فيسبوك: http://www.facebook.com/RIDAEgypt

٢- البريد الإلكتروني: rida.author@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

2022م

الإهداء

إلى تلك الروح التي هي مـن آلاء الله فـي هـذا الكون المنظور ..

إلى القلب الشـاكي حيرتـه فـي غياهـب الفكـر المكدور ..

إلى كل همّة تسعى دائمًا نحـو كمـال المعرفـة الصافي ..

الكاتب

مقدمة

العقلاني العربي الحديث مُختلف تمامًا عن العقلاني الغربي من ناحية المنهج والموضوع والأسلوب والطريقة..

فعقلاني العرب قد ختم ذُروة علمه بختم الإنكار الغربي للحقائق الوجوديّة المدعومة بالأديان، والتي تدور حول الإيمان بالحقائق الإلهيّة والقيم الأخلاقية والقضايا النبوية..

وكان منهجه في طريقته هذه كمنهج المولع دائمًا بتقليد الغالب؛ ليس لشيء إلا لأنه غالب وظاهر؛ يدعمه الإعلام وكثير من المؤسسات المؤيدة لأفكاره للتدليس على عامة الناس.

فلم يضع عقلاني العرب تفسيرًا كليًا يوضح مذهبهم الوجودي ونظرتهم الفلسفية لهذه الحياة؛ بحيثُ يكون هذا التفسير سبيلًا للعقل السليم في اتباعهم، وإنما اكتفوا بترديد السائد الغربي بكل مُراداته دون تثبت وتعقل!

في حين أن صاحب الوجهة المادية الغربي لا يزال يُدافع عن فلسفته الخاصة (الإلحادية) كالفارس المغوار حتى وضع الكتب وأقام المؤسسات وأنشأ القنوات في سبيل فكرته والذب عنها..

يفعل هذا وهو على خطأ معرفي عظيم، وتناقض عقلي كبير، فماذا فعل العقلاني العربي غير أنه يردد كالببغاء ما قرره غيره بدون إسهام له ولو حتى بمحاولة التفسير لما فهمه!؛ أم أنه لم يفهم واقتصر ببريق الكلمات ؟!

أهذا فهم أرشد في الاتباع مقارنة بالدعوة الدينية التي تقول: " لا يكن أحدكم إمّعة، يقول : إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت. ولكن وطنوا نفوسكم إن أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا لا تسيئوا".

فلا يليق بالعقل أن يسير كالقطيع بدون تفكّر وتعقّل للأمور، حتى لا يتسبب في هلاكه ويجر معه الأبرياء من الناس بسبب غفلته وقصوره.

إن العقل أكرم ما تفضّل الله به على عباده، فبالعقل كان مناط التكليف البشري، وبه تميّزَ الإنسان عن باقي المخلوقات، وبه ارتقت المجتمعات، وقامت الحضارات، وأُسست قواعد الفكر والمعرفات..
وقد امتدح الله (واهب العقل) الإنسان الذي يستعمل عقله في طرائق الخيرات وتأمُّل الحقائق المتجليات، وكثيرًا ما ذم أهل الغفلة والنسيان، وأصحاب الجهل والإلحاد الذين لا يُعملون عقولهم المميزة لهم عن الأنعام، يقول تعالى:

" وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"؟
"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"
"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"

ولام الله تعالى على من لا ينتفعون بعقولهم في التأمل في خلق الله وما أبدعه في أنفسهم ليصلوا للهدى والرشاد فقال: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}.

وبهذا العقل تصدى ذويه للأفكار المنحرفة والمغلوطة على مر العصور، وكان من بين ما تصدوا له (الإلحاد الدهري) الذي أعاق مسيرة الإنسان في الوصول إلى ربه وإصلاح الصلة بين المخلوق وخالقه.

وإننا لنتأمّل في هذا الفكر ونتوقف معه قليلًا لنرى هل هو حقًا (الحق المنشود) للبشرية التي تاهت منذ بدايتها باسم الأديان والشرائع!؛ أم أنه سيف أسود على رقاب الإنسانية مدهون بأشد أنواع السموم!

لقد تفشى طاعون الأفكار الزائفة في كل عصر من العصور، ووقف في وجهه أهل الألباب حتى أُخمدت جراثيمه.. ولنا مع ذوي الألباب وقفة نستمتع من خلالها ببعض إسهاماتهم في الصد والرد على منحرفي الطباع وضائعي الفكر.

القسم الأول

الإلحاد!

تحديد المفهوم:

الإلحاد هو مطلق الميل، ولذا يُقال لمن ترك دينه ليعتنق آخر: قد ألحدتَ! ، ويقال لمن أخطأ: ألحدت عن الصواب؛ أي: مِلتَ.

وقد أطلق حديثًا على من يُنكرون الخالق ويقولون بقدم العالم، وأنه موجود بنفسه من غير حاجة لموجد له.

وقد كان هذا النوع قديمًا يسمى أهله بـ"الدهريين" نسبة إلى الدهر والدنيا المحسوسة، لرفضهم الإيمان والتصديق بكل ما غاب عن حدود الحواس ودائرة المادة، وهذا النوع هو مطلوب بحثنا.

وقد اتخذ هذا الإلحاد المُنكر منهجًا ينتهجه في طريقه، هذا المنهج يدور حول عدة قضايا مختلفة تصب كلها في دائرة العجز عن التفسير السليم للحقائق، وقد كانت ولا تزال ذات سمات نفسية واجتماعية تسيطر على الإنسان وتحركه نحو باطنه المظلم.

هل هو إنكار فعلًا؟

إن قوام الفكر الإلحادي لا يرتقي إلى العقلانية المنشودة، التي لطالما تغنوا بها ! ؛ حيثُ أن هذا الفكر المادي بإنكاره للخالق في مفهوم الأديان (الله)، قد آمن بخالق آخر لهذا العالم، أو علة، أو سبب لهذا العالم، فيزيائية كانت أو طبيعية.. ومن هنا ندرك للوهلة الأولى حقيقتين:

- الأولى: أن العلة الأولى التي نشأ عنها هذا العالم، معظم العباد مؤمنون بها.
- الثانية: تناقض هذا الفكر الإلحادي مع ما يقررونه من أصل النشأة الموجهة.

وهذه الحقيقة هي التي اهتم ببيانها كثير من أهل العقل والفلسفة حتى تتضح الصورة كاملة عن دعاة هذا الإلحاد المزعوم، وقد عبر الدكتور محمود حمدي زقزوق عن هذا بقوله: "فالمسألة التي هي محل النزاع الفلسفي إذن ليست مسألة ما اذا كان الله أو المطلق موجودا أم لا **وإنما هي مسألة (كيفية تصوره)!**

إن المرء عندما يمعن النظر في الموضوع يجد أن النزاع الفلسفي الكبير لا يدور أبداً حول وجود المطلق، أي حول وجود اللا متناه. فوجود مثل هذا الموجود أمر يدعيه بنفس الحزم كل من أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وتوماس وديكارت واسبينورا وليبنتز وكانت وهيجل ووايتهيد _وايضا_ إذا جاز أن يقارن المرء العقول الصغري بتلك العقول الكبيرة ، فإن هذا ما يدعيه الماديون الجدليون ، اي الفلاسفة الرسميون للحزب الشيوعي ، فهم بينما ينكرون وجود إله المسيحية، يدعون عادة في الوقت نفسه أن العالم غير متناه وخالد وغير محدود ومطلق والأكثر من ذلك هو أن موقفهم ، كما يستطيع كل واحد أن يتبين ذلك بسهولة، موقف ذو طابع ديني في بعض الأمور".

وهذا العقل الذي وهبه الله للإنسان يصل عبر البحث والتفكر والتأمل الى قوة عظمى وراء هذا الكون الفسيح وهذا الوجود المحسوس ليدرك أن له خالق ومبدع خلقه وأحكمه.

ولذلك كان مما سلم به جميع الخلق _ومنهم الماديون_ أن هناك قوة عظمى تسيّر هذا الكون وتتحكم فيه .. لكن الخلاف والانحراف هو في تصور هذه القوة الخالقة ، فالعقل يدل عليها لكنه لا يستطيع ان يبين صفاتها ولا حتى اسمها !

فتارة يسمونها بـ "العلة الأولى" أو "القديم" أو "الواجب" أو "اللامتناهي" أو "المطلق" أو "الخالد" ... الخ.

يقول الشيخ الشعراوي: "والرسول عندما يأتي يقول: إن القوة التي تبحثون عنها، والتي آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها (الله). فلابد أن نصدق الرسول. فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة. ولكن الذي يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا".

هل يقف قانون السببية عند علة العلل؟!

في عصرنا المتقدم!؛ يقولون: إذا كان كل شيء موجود له علة لوجوده وخلقه؛ فما هي علة وجود الله ومن خلق الله إذا كان الله موجودا ؟

يمكننا أن نوضح هذا الأمر من خلال النقاط التالية:

أولًا: الوجود نوعان:

١_ الوجود النسبي (وهو الوجود الذي له بداية ونهايه) كالإنسان، وجوده نسبي لأن له بداية منذ مولده ونهاية بمماته.. والكون لأن له بداية لوجوده ، وهذا ما أكد عليه العلم الحديث من خلال نظرية "الانفجار العظيم"، وله نهاية أيضًا..

٢_ الوجود الثاني هو الوجود المطلق (وهو الوجود الذي ليس له بداية وليس له نهاية، أزلي أبدي، وجوده ذاتي) وهو الله عز وجل فقط. (الله بلغة الدين)، أو (اللامتناهي بلغة الفلسفة) ، أو (الخالق بلغة البشر).

فنقول إن كل موجود له علة لوجوده (ونقصد بذلك الوجود النسبي) لا المطلق.

ثانيًا: هناك حقيقة لا يدركها كثير من الناس وهي أن ٩٥% من البشر مؤمنون بعلة موجِدة لهذا العالم، والاختلاف الذي بين بعضهم إنما هو في تعريفها. فالعلة الأولى التي نشأ عنها هذا العالم كل العباد مؤمنون بها ..

حتى الملحدين الذين ينكرون الخالق في مفهوم الدين فهم يؤمنون بعلة طبيعية أو فيزيائية أو غيرها ، فصار الإيمان بالعلة الأولى ضرورة عقلية .. والانحراف يكمن في تعريفها وتصورها .

ثالثًا: هناك فرق بين الخالق والمخلوق. فالمخلوق ما يحتاج إلى سبب لوجوده.

أما الخالق فلا يحتاج؛ لأنه يخلُق ولا يُخلق!

ولأن وجوده ذاتي؛ أي: أنه لا يحتاج إلى من يوجده، لأنه كامل، وغني عن الاحتياج. (ليس كمثله شيء)

أما كل موجود غيره فهو محتاج وناقص. لذلك يُطلق على الله واجب الوجود لأنه هو الوجود الأساسي الذي من خلاله أوجد كل الوجود النسبي الآخر..

رابعًا: هناك فرق بين أن يحتار العقلُ في معرفة الشيء، وبين أن يحكم باستحالة الشيء..

– فالمستحيل هو: ما كان عدمه ضروريًا بديهيًا، كاستحالة وجود أحمد في البيت إذا كان موجودا بالنادي مثلاً .

فالحكم بالاستحالة هنا بديهي، لا يحتاج إلى دليل.

– أمّا ما يقول العقل بوجوده؛ لكنه يحتار في وصفه وتصوره.. فإنكاره جهل وقلة علم، لأنه ليس كل ما يحتار العقلُ عن إدراكه مستحيل الوجود، فمثلًا: روح الإنسان موجودة وهي التي تُدير جسده، ومع ذلك فالإنسان بكل ما أوتي من التقدم والعلم لا يستطيع أن يُدرك أو يتصور حقيقة هذه الروح.. وفي الوقت نفسه لا يقول أحد أنها غير موجودة لأن عقله عاجز عن تصورها!

من خلال هذا العرض البسيط نُدرك خطأ قول السائل: من خلق الله؟ أو ما علة العلة الخالقة؟

لأنه لم يُفرق بين الخالق والمخلوق، والعلة الواجبة والمعلول، وصفات كل منهما. ولم

يفرق بين الوجود المطلق والآخر النسبي. ولم يفرق بين مُحالات العقول ومُحارات العقول..

ولهذا فإن قانون السببية إنما يكون فقط للنوع الثاني من الوجود النسبي المُنتهي، ولا يصح قياسه على المطلق الواجب لانعدام التشابه ووجود التغاير الكلي بين كلا الوجودين.

وهذا الوجود اللا متناهي لا يمثل الأجسام؛ فالجسم بالحد هو المركب من جوهرين فأكثر، وبالرسم هو ما له طول و عرض و عمق، و يأخذ حيزا من الفراغ لا يشاركه فيه غيره إن كان كثيفا و يشاركه فيه غيره إن كان غير كثيف.

وقد جاء الدين بنفي الجسم عن الخالق بقوله تعالى : "ليس كمثله شيء"

فكل شيء سوى الله تعالى فالله مخالف له، وقد علمنا بالمشاهدة أن كل شيء سوى الخالق هو جسم أو عرض قائم بجسم، والنتيجة المنطقية لذلك أن الله ليس كذلك .

وقد يُقال: هل يتصور كون موجود بدون جسم؟

تصور موجود ليس بجسم أمر بسيط يحصل بالتفريق بين الوجود و بين الجسمية، فبينهما خصوص و عموم؛ فكل جسم موجود و ليس كل موجود جسم، لأن الوجود يعم الأجسام و الأعراض و غير الأجسام و الأعراض، مع العلم بأن الذات مغايرة للجسم، فكل جسم ذات و ليس كل ذات جسم.

فعقلك يتصور وجود الحمرة أو الزرقة و غيرها من الألوان والحمرة كمفهوم ليست جسم بل هي عرض يقوم بجسم.

وهذا الخالق ليس بجوهر و لا روح، لأن الجوهر هو الجسم البسيط، والروح هي جسم خفيف و كلاهما مخلوقان .

الأدلة على وجود الله

لن نتعرض إلى الأدلة على وجود الله بالتفصيل؛ فمنهجنا هنا الإشارة الهادئة والوقفة التأمّلية، ولهذا فإننا سنشير إشارة هادئة لبعض هذه الأدلة التي تُخاطب العقل الإلحادي بالعقلانية والفكر.

أولًا : أدلة حدوث العالم.

١. دليل الحدوث:

يقوم هذا الدليل على أن العالم – وهو اسم لما سوى الله عز وجل – متغير بالمشاهدة وكل متغير حادث، وكل حادث لا بد له من مُحدِث .وهذا المُحدِث هو الله، عز وجل.

فموجودات العالم خاضعة لمبدأ السببية، وأن تسلسل الحوادث إلى ما لانهاية باطل . ثبت إذن حدوث العالم، وأن لها مُحدث وهو الله .وهذه العلة الخالقة المُحدِثة (الله) لا بد أن تكون أزلية؛ لها كامل الصفات .والله عز وجل هو عِلة كل معلول.

٢. دليل الكثرة والتركيب:

ويقوم على أن العالم تعتريه الكثرة، وهذه الكثرة تؤدي إلى التركيب في ذوات أفراده، وهذا يقتضي حدوث كلا منهم؛ لأنه يحتاج إلى مُركب يركبه، وهذا المُركِب هو الله

من أدلة العلم الحديث على حدوث العالم:

1. القانون الثاني للتيرموديناميك: هذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليًّا، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائمًا من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، والعكس غير ممكن.

يقول كريس موريسون: "وهكذا توصلت العلوم – دون قصد – إلى أن لهذا الكون بداية .وهي بذلك تثبت وجود الله؛ لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد من مبدئ، أو من محرك أول، أو من خالق، هو الإله".

قال السير جيمس الكلام نفسه: "تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها؛ لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض، حتى نفكر فيها .إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون، يمكن أن نسميها خلقًا في وقت ما، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليًّا".

2. الانفجار الكبير: يقول العالم الفلكي الشهير ستيف هاكنغ» :إن إدوين هابل أجرى سنة1929 م مشاهدة تعد علامة طريق، هي أنك حيثما وجهت بصرك، تجد المجرات البعيدة تتحرك بسرعة بعيدًا عنا . وبكلمات أخرى فإن الكون يتمدد .ويعني هذا أن الأشياء كانت في الأوقات السالفة أكثر اقترابًا معًا .والحقيقة أنه يبدو أنه كان ثمة وقت منذ حوالي عشرة أو عشرين ألف مليون سنة، حيث كانت الأشياء كلها في المكان نفسه بالضبط، وبالتالي فإن كثافة الكون وقتها كانت لا متناهية .وهذا الاكتشاف هو الذي أتى في النهاية بمسألة بداية الكون إلى دنيا العلم".

ويقول كريسى موريسون في حديثه عن بداية الكون: " وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل أوجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد، وعلى ذلك فان هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقًا".

ويقول الفيزيائي إدموند ويتيكر: "ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم"

وينتهي الفيزيائي إدوارد ميلن، بعد تفكره في الكون المتمدد، إلى هذه النتيجة قائلًا : "أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ .ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله".

3. تمدد الكون وتوسعه: في عام 1929 شاهد عالم الفلك الأمريكي إدوين هابل بواسطة التلسكوب أن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعات هائلة .إن حركة ابتعاد المجرات ناتجة عن توسع الفضاء الكون وامتداده.

وهذا الكون ما دام في توسع فإنه لا بد وأن تكون له بداية . وهذا ما حدثنا عنه القرآن قبل ذلك بقوله تعالى: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ".

أدلة أخرى على وجود الله:

1 – **دليل النظام والإتقان:** ويقوم هذا الدليل على أن هناك إتقانًا للكون وتنظيمًا له، وهذا الإتقان لا بد له من مُتقن، وهذا النظام لا بد له مُنظم، وهو الله .فمستحيل أن يكون هذا صدفة، لأن الصدفة لا تستطيع أن تجعل قانونًا مُحكمًا، فما نسميه الصدفة هو تعبير عن جهلنا معرفة الأسباب .ومحال أن تكون العلة الفاعلة مادة إذ كيف توجِد المادة» غير العاقلة «قانونًا كهذا يسير عليه الكون دون اضطراب؟!

فلا عبث إذن ولا فوضى، وإنما هو نظام وإتقان وتقدير وتدبير، قال تعالى: "صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" ، وقال تعالى: "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً" ، وقال تعالى : "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ".

2- **دليل المشابهة:** ويقوم على المشابهة بين النفس بالنسبة للبدن وبين الله بالنسبة للكون، فكما أن أفعال البدن تدل على وجود نفس له تدبر له؛ فكذلك وجود نظام في الكون يدل على وجود مُنظم له، وهو الله، عز وجل .وقد قال بهذا الدليل الكندي الفيلسوف المسلم.

3- **دليل الإمكان:** وهذا الدليل من أدلة المتكلمين على وجود الله تعالى، ومفاده: أنه إذا لم يكن للعالم واجب) وهو الله (لانحصرت الموجودات كلها في الممكنات، والممكن هو ما استوي طرفاه إيجادًا وعدمًا؛ أي إنه لا يستطيع أن يوجد نفسه، ويلزم من هذا الانحصار عدمه، لأن الكون موجود بالمشاهدة، وما دام موجودًا فلا بد من »علة «أزلية أوجدته وأخرجته من دائرة الإمكان إلى دائرة الوجود؛ لأنه كما قلنا الممكن لا يوجد نفسه، وهذه العلة« الله «سبحانه.

وبطلان الدور والتسلسل واضح ، فالدّور هو توقُّف وجود الموجود الأوّل على الموجود الثاني، ووجود الثاني متوقِّف على الأوَّل فكلٌّ منهما علّة لوجود الآخر، وعليه يلزم أنْ يكون كلٌّ واحد منهما متقدّمًا لأنّه علّة، و متأخّرًا لأنّه معلول، وهذا جمع بين النقيضين وهو ممتنع بالبداهة .فالدّور باطل، وكلّ ما يلزم منه الدّور باطل أيضًا.

والتسلسل هو عبارة عن توقّف الموجود الأوّل على الثاني، والثاني على ثالث ... وهكذا إلى ما لا نهاية.

وهنا تجتمع سلسلة من الموجودات الممكنة، كلّ واحد منها معلول للسّابق وعلّة للّاحق، مترتّبة غير متناهية!

وهنا يُسأل عن العلّة الّتي أفاضت الوجود على هذه السّلسلة الممكنة، فإن كانت العلّة ممكنة أيضًا كانت محتاجة إلى علّة أيضًا وهكذا إلى لا نهاية، ويلزم عدم وجود الموجودات، ولكنّ وجودها بديهي . وإن كانت العلّة واجبة الوجود، أي: وجودها ذاتي، فقد انقطعت السّلسلة وحصل المطلوب.

4- الشر ونقص العالم: يقوم هذا الدليل على أن العالم مخلوق، ولو كان وجوده من نفسه، وأنه قائم بذاته لمنح نفسه الكمال المطلق وتنزه عن النقائص والشرور .وما دام الواقع يدل على خلاف هذا مما يقع في الكون من شرور وفساد ونقص. إذًا فهذا الكون مخلوق، والذي خلقه هو الواجد الحقيقي الكامل الذي يمنح غيره الكمال النسبي .وهذا الكمال المطلق هو الذي يمن على كل وجود غيره من فيض جماله وكماله .وما تنتجه العقول من أسباب لتجنب بها هذه الشرور إنما هي من فيض كماله ولطفه بكل وجود نسبي.

هذا بإجمال ما أردنا عرضه لأهل الفكر من الملحدين .ونسألهم :هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ هل لديكم رد عقلي علمي مُثبت لدحض هذه البديهيات الأولية؟!

سفسطة أم عقلانية!

"عدم القدرة على التفسير تُعد تفسيرًا"!

هكذا يسير أخانا المُلحد على طريقه في هذه الحياة، يسير وبيده اليمنى سيف الإنكار، وبيده اليسرى مشعل الدعوة لهذا الإنكار..

لكن هل وقف يومًا مع ذاته لحظة تجلي للفكر المهزوم وقال: ما الذي يمكنني أن أبدله بالإقناع بدلًا من التزييف والإنكار؟

هل قال لنفسه يومًا: ما البديل الصحيح الذي وضعته لهذه البشرية التائهة؟!

إن أخانا لم يقف؛ ولا نأمُل منه أن يقف، فالوقوف على مياه البحار مُغرق، لا بد من سباح ماهر يُجيد السباحة في متاهات العقول وبحار العلوم ليتمكن من النجاة من شرور الأفكار البائسة..

إن أخانا يفسر النشأة والتكوين معتمدًا على "الصدفة" ويقول: ما المانع؟!

ولم يُدرك أن الصدفة تتصف بصفات تجعل من كونها سببًا للإيجاد والنشأة منعدمة، وأهم هذه الصفات: أنها غير عاقلة؛ فلا تقوم على أدنى ترتيب عقلي حكيم.. ثم إن

العشوائية مرافقة لها دومًا، ونحن نرى هذا البناء الكبير منذ بداية الخليقة قائم على النظام والحكمة والإتقان.. فكيف يخرج المُرتب من العشوائي؟!

وكيف ينشأ المُنظم عن العشوائي؟

****

يذهب أخانا إلى رفيق دربه "داروين" فيحمل مشعله الأسود لتدعيم مذهبه، فيقول بالتطور وأن الإنسان والقرد لهما سلف مشترك واحد..

لكن لو سلمنا جدلًا بهذه النظرية، هل هذا يُفسر فعلًا حقيقة الخلق الكونية وأنه وجد بدون واجد؟

إن داروين نفسه لم يزعم قط أن ثبوت نظرية التطور ينفي وجود الله، ولم يقل إن هذه النظرية تفسر خلق الحياة.. وغاية ما ذهب إليه في ختام كتابه "أصل الأنواع": إن الأنواع ترجع في أُصولها إلى بضعة أنواع تفرعت على جرثومة الحياة التي أنشأها الخلّاق.

وقد أكد على إيمانه بالخالق عندما سُئل عن عقيدته فأجاب: إنني متردد ولكنني في أقصى خطرات هذا التردد لم أكن منكرًا لوجود الله.

ألا تؤكد هذه النظرية الإبداع الموجه في الخليقة؟

إن الحقيقة الدينية لتوافقها هذه النظرية كما يذهب الدكتور يوسف عيسى، بحيثُ أن تشابه الحيوانات في إطارها الأساسي لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق يبدعه خالق واحد.

فالاختلاف إذًا ليس دليل على العجز والعشوائية؛ وإنما هذا التنوع من أكبر أدلة الإتقان والمُحكمات الكونيّة، وهذا يُفضي بالضرورة إلى مُبدع أولي لها.

****

هل نفي البديهيات العقلية يُعد أمرًا عقليًا؟!

من البديهيات العقلية أن المعلوم ينقسم إلى:

١. واجب لذاته

٢. ممتنع لذاته

٣. ممكن لذاته

وهذا الأخير لا يستقل بوجوده بذاته، لأن طرفاه في الوجود والعدم متساويان، فلكي يخرج من دائرة العدم إلى دائرة الوجود لا بد من مؤثر يخرجه بتأثيره عليه.. فالحيوان مثلًا لا يوجد صدفة تلقائية بدون سبب له، بل لا بد له من سبب أوجده لإمكانه المنتهي زمانًا ولبداية إخراجه.

وعندما يدّعي الملحد أن هذا العالم قائم بذاته موجود بنفسه فإن العقل والعلم يكذبانه، فالعلم قد أثبت بداية هذا الكون ووضح مآله بالتمدد والتوسع..

والعقل قد جزم بإمكان العالم لتغيره وكثرته وعدم قدرته على الاستقلال الوجودي والإبداعي، فلو أنه مستقل لأمّن ذاته من النقائص الكونية براكينًا وزلازل..

وهنا يأتي دور العقلانية الصحيحة فتتساءل: هل يمكن للفكر المُنصف أن يميل إلى العقلية الإلحادية في مزاعمها؟

أم أن الرُقي المنطقي والحقيقة يكمنان في الإيمان بالمطلق الخالق؟

****

يعتمد مُدعي العقلانية على نظرية "الانفجار العظيم" عندما يُريد أن يُفسر نشأة الحياة.. لكن هل يُعد هذا الاعتماد من المقبول ؟

هذه النظرية الفيزيائية تقرر أن الكون كان جزءًا واحدًا عند نشأته، وأنه كان في حالة حارة شديدة تسببت في تمدده، وما زال يتمدد إلى الآن، وفي وقت ما حدث "الانفجار العظيم" فانقسم الجزء الواحد للكون إلى جزأين، ومن هنا قد تكون كل شيء في الحياة.. ثم سيصل هذا الكون إلى حجم أقصى ثم يبدأ في الانهيار، حيث سيصبح أكثر كثافة وسخونة مرة أخرى، وينتهي إلى حالة مماثلة لتلك التي بدأ منها، فيما يُعرف بـ"الانسحاق العظيم".

مع فرض صحة هذه النظرية العلمية، والتي تمثل كونها نظرية وليست حقيقة، فقد تعرضت إلى الحديث عن جانب "الفعل" و"المفعول به" في تفسيرها للنشأة، لكنها لم تتطرق إلى تفسير "الفاعل" و"الموجِّه" إلى هذا الانفجار وهذه النشأة، فهل يُعد ذلك صدفة وعشوائية في التغيير والتدرج نحو الكمال؟

هل من المعقول قيام الفعل بدون فاعل؟!

هذه المادة لو افترضنا أنها قديمة فعلًا كما يزعم البعض؛ كيف تأسست وتطورت إلى ما نراه في الكون من قوانين طبيعية ونظام كوني مُحكم لا يتخلله سفه أم عدم إدراك؟

وهل يُعقل أن تصير اللا عقلانية إلى العقل بدون مؤثر خارجي عليها؟

هل من العقل الاستناد إلى نظرية لا تتعلق بالعلة الأولى إلى تفسير العلة الأولى؟

العقل يجزم بالخطأ المنهجي والفكري في هذا، فكيف لو كانت هذه النظرية تعتبر الأساس أو العلة الأولى للنشأة؟!

اللهم إن هذا خطأ عقلي عظيم!

****

هل يُعد ترك أصل القضية _الذي هو محل الخلاف والنقاش_ إلى فروعها منهج عقلي سليم؟!

فعندما يأتي المُلحد المُنكر للخالق ويستدل ببعض ما جاء في الأديان على عدم وجود العلة الأولى المتسببة في إيجاد هذه الحياة، هل هو بذلك قد اتبع العقل والمنطق؟

فمثلًا لو أنني ذهبت لأشتري سلعة معينة من تاجر، هذا التاجر يتعامل مع شركة كبرى تصدر له منتجاته، فلم تعجبني السلعة التي اشتريته، وبسبب رفضي للسلعة قلتُ: هذه السلعة ليست سليمة وعلى هذا لا توجد شركة كبرى تصدر هذه المنتجات.. هل مذهبي هو مذهب العقلاء هكذا ؟!

إن التفريع (بداية) على الأصل الذي هو محل القضية لا يُعد طريقًا عقليًا سليمًا.

(الدين) خرافة أم تعقّل؟

منذ أن وطئت أقدام الإنسان هذه الحياة وهو مؤمن بالقوة الغيبيّة المُدبرة لها، علمها أم لم يعلمها، وقد جاء "الدين" لهذا الإنسان القاصر عن الإحاطة بالغيب ليأخذ بيده إلى نور المعرفة المنشودة، التي من خلالها يستطيع الارتقاء في سمو الفكر والمنطق..

إن فلاسفة اليونان القدامى الذين توجهوا بكل ملكاتهم إلى العقل ورفعته وخدمته.. لم يخلوا من تناقضات في المسائل العقلية المتعلقة بالوجود والنشأة، فطاليس العبقري الذي أشاد بالماء أصلًا في النشأة لم يتطرق لبيان كيفية هذه النشأة المزعومة، وأنيكسمندر العظيم الذي قال باللا متناهي أو اللا محدود قد جعله مادة وجسمًا؛ فكيف يستقيم اللا محدود بالمادة المحدودة؟

أم الجد الأول للشك وهو الفيلسوف هيراقليطس فقد قال أن الكون نشأ في بداية الأمر من النار.. ومع أنه يرى أن العالم قديم إلا أنه لجأ إلى الصدفة في تفسيره فجعلها الأساس الذي قام عليه الكون.. ثم نراه يضع قانونًا عامًا مُنظم للطبيعة سماه "اللوغوس" وفي هذا تعارض وتناقض واضح!

أما سيد الفلاسفة أرسطو الذي قال بالمحرك الأول وأنه قديم؛ قد قال أيضًا بأن الكون قديم، ومهمة المحرك أنه قام بتحريك الكون فقط، فهل يستقيم القول بقدم الكون وهو مكون من المادة المعلوم حدثها؟

وما ضرورة المحرك إذا بعد هذه الخطوة التي خطاها بالتحريك؟

ثم أن من صفات المحرك عند أرسطو أنه ليس بجسم وقد حرك الكون عن طريق الملاقاة والمباشرة والالتماس؛ فكيف يستقيم هذا مع من ليس بجسم؟!

إذا كان هذا هو الفكر اليوناني العظيم الذي يشتهر بسموه ورفعته.. إذا كان هكذا في تفسيره للوجود فكيف بغيره من المولعين به؟

لقد جاء الدين لينقذ العقل من هذه الحيرة بنور الله الخالق فقرر، ووضح، وأقام الحجج والبراهين القاطعة الساطعة لكل إنسان حتى يعرف سر وجوده ويُدرك حقيقة خلقه.

هل الدين أفيون الشعوب؟!

لم تخل أمة من الأمم على مر العصور من الدين والتدين، فقد كان الدين أساسًا يتبناه الإنسان في حياته، والذي جرى أن تعددت صوره في كل عصر من العصور بما يتوافق مع رؤيتهم وعلمهم آن ذاك.

يقول الدكتور محمد العزيري: فـ«عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، والوثنيات ما هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة»، ومن أشهر القائلين بهذا الرأي لانج الذي أكد وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم سريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام، وشميدات أكدها عند الأقزام وقبائل أستراليا، وهذا مصداقًا لقوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ».

ومبعث هذا التدين ليس الخوف من الطبيعة ولا اعتقاد حلول الأرواح، ولا السحر كما فسر ذلك أصحاب النظرة المادية، ولكنه الوحي. وهو الصورة الأولى التي عرفها الإنسان الأول آدم وتعلمها ووقف عليها، ويوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة مبينا أن الله سبحانه هو مصدر التعليم لآدم كما في قوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»، «خَلَقَ الْإِنْسَانَ،عَلَّمَهُ الْبَيَانَ».

لا بد من التفرقة في هذا الأمر بين نوعين من التدين:

النوع الأول: الدين الذي يحجر على الفكر والإبداع، ويقصّر في واجبات أتباعه، ويدعو الناس إلى الرضا بالدون، والخنوع للجهل والفساد.. إنني أتفق معك على أن هذا النوع من التدين أحرى أن يسمى بأفيون الشعوب؛ بل بمُهلك الشعوب!

النوع الثاني من التدين: هو الذي يُقيم العدل والقسط بين الناس، ويحافظ على الحقوق، ويدعو للعلم والعمل والسعي في الارتقاء للعلا والمجد، ويقيم أساس المعرفة على العقل والأدلة .. إن هذا النوع هو الأحرى بالاتباع والإيمان.

إن الصورة المشوهة عن للدين (بشكل عام) إنما أتت من أُناس كل غرضهم شهواتهم وتلبية احتياجاتهم ولو كان على حساب الآخرين؟ فصاروا يُخادعون ويكذبون ويُنافقون.. وسموا ذلك دينًا معصومًا، واتبعوه، ويدعون الناس إلى اتباعه!؛ فصار المستبد الظالم يُلبي رغباته باسم الدين، ويُحارب من أجلها، ويقتل ويسفك دماء الأبرياء لتحقيقها!

فالذين يقولون إن الدين هو أفيون الشعوب متأثرون بمشاهد من يتحدث باسم الدين (شيوخ، حكومة، متدينين) يقولون كلامًا ويفعلون خلافه: يقتلون باسم الدين.. يسرقون باسم الدين.. يكذبون باسم الدين.. يأتون الفواحش باسم الدين.. يُسفّهون العقل والمنطق باسم الدين.. يغتصبون الأفكار باسم الدين!

إن هذه الأفعال السيئة جعلها أصحابها دينًا آخر غير الدين الذي أنزله الله، وهذا الدين الباطل هو بالأحرى أفيون الشعوب ومُهلكها!

أما المنهج الماركسي الذي نادى برفع الهيمنة من على الملكية الخاصة لتصبح ملكية عامة، قد ظلم الإنسان والمواطن حيثُ جعل صلاحية التصرف في المال إلى حفنة قليلة، هم أعضاء اللجنة المركزية في الحزب الحاكم الخاص بهم. فهل هذه هي الحرية المنشودة في المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي!

بل إن ممارساته القمعية التي أبت أن يعرضه أحد باتت تسيطر على روح الدولة المحكومة تحت يديه فأجهزة مخابراته قد جندت الصديق للتجسس على صديق والأخ بالتجسس على أخيه. يروي "ليونهارد" أن صديقة له جندتها المخابرات، للتجسس

على زملائها، وروت له ذلك بعد أن أخذت منه العهد والميثاق بألا يبوح بهذا السر، إنها كانت تعمل جاسوسة مع المخابرات وتقدم تقارير بصفة مستمرة عن طلبة معينين، ولا توقع باسمها الحقيقي على هذه التقارير بل باسم مستعار يعرفونه بها ، وقد كانت هذه التقارير تكتب في الأشخاص الذين يتكلمون على الحزب الحاكم وينتقدون سياسته..

لقد كانت السياسة القمعية مهيمنة على روح المجتمع الشيوعي الماركسي آنذاك حين تمسكوا زمام الأمور..

ويأتي من يردد اليوم ظنًا منه أنه يهتف للحرية "الدين أفيون الشعوب"!

الإرهاب بين الدين الإسلامي والمذهب الإلحادي

في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن "الإرهاب" وعن مصاحبته للمسلمين في غالب الأمور، فإذا وقعت حادثة تستهدف الأمن قالوا: المسلمون!

وإذا سُمع عن تهديد للأبرياء قالوا: المسلمون!

لكن هل هذه حقيقة فعلًا؟ هل المسلمون إرهابيون متطرفون ؟ وهل الإسلام يدعو للعنف والتطرف؟

تعريف الإرهاب

لقد عرف ابن منظور الإرهاب بقوله: (رهب بالكسر يرهب رهبة ورهباً ورهباً بالضم ورهباً بالتحريك، أي: خاف، ورهب الشيء رهباً ورهباً ورهبة خافه.. وترهب غيره إذا توعده.. وأرهبه ورهبه واسترهبه أخافه وفزعه)

وقد صدر في تحديده بيان عن مجمع الفقه الإسلامي في رابطة العالم الإسلامي بمكة في دورته السادسة عشرة ، المنعقدة في شوال من عام ١٤٢٣هـ بمكة المكرمة ، حيث حدَّدوا الإرهاب بتحديد سبقوا به جهات عالمية عديدة غالطت في معناه ودلالاته ، وجاء في بيانهم أن: (الإرهاب هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات

أو دول بغيا على الإنسان في دينه ، ودمه ، وعقله ، وماله ، وعرضه ، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق ، وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق ، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس ، أو ترويعهم بإيذائهم ، أو تعريض حياتهم ، أو حريتهم ، أو أمنهم، أو أقوالهم للخطر ،

ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد مرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة ، أو تعريض أحد الموارد الوطنية ، أو الطبيعية للخطر.
فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله – سبحانه تعالى – المسلمين عنها قال تعالى:

{وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٧٧] .

وفي قاموس أكسفورد "Oxford Dictionary": نجد أن كلمة Terrorist "الإرهابي" هو الشخص الذي يستعمل العنف المنظم لضمان نهاية سياسية، والاسم Terrorism بمعنى "الإرهاب" يُقصد به "استخدام العنف والتخويف أو الإرعاب، وبخاصة في أغراض سياسية" .

إن الناظر إلى ما آلت إليه نظرات العلماء والهيئات المتعددة في تحديد معنى الإرهاب والإرهابي يجد أن كلها تتفق على شيء واحد، وهو: "تخويف وترويع المسالمين الأبرياء"، وأن الشيء الذي مقتته الأنظمة والمؤسسات المدافعة عن حقوق الإنسان ليكمن في تفزيع الناس لغرض سياسي كان أو شخصي..

فما نظرة الإسلام لهذا الأمر؟

في القرآن الكريم:

نجد أن الله عز وجل قد جرّم كل نوع من أنواع التعدي والظلم والإفساد، حتى أنك لتكاد تشعر بالعجب من سماحة الإسلام ورحمته في أخلاقه مع الآخرين.

انظر كيف ضرب الله لنا مثلًا بين نموذجين يحثنا على الاقتداء بأحدهما، هذين النموذجين يتمثلان في قصة قابيل وهابيل ولدي آدم عليه السلام، حينما قال لله: "

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) ".

بل إن الله عز وجل قد عاقب من يقومون بأعمال عنف وإرهاب تجاه الناس فقال:" إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا

أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

يقول القرطبي رحمه الله: " وإذا أخاف المحاربون السبيل وقطعوا الطريق، وجب على الإمام قتالهم.. ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين".

وفي السنة:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة»

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»

هذه هي المصادر الأساسية عند المسلمين في اعتقاداتهم وسيرهم في الحياة وتعاملهم مع غيره، فهل نجدها مصادر غلو وتطرف وعنف؟!

عند العلماء:

انظر إلى فهم علماء الإسلام لحقيقة السلام والعدل في الشريعة الإسلامية، قال البيضاويُّ: " لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين (المعتدين) على ترك العدل فيهم (في غير المعتدين في سائر الأقطار الأخرى) ، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيًا مما في قلوبكم: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} أي: العدل أقرب للتقوى، صرَّح لهم بالأمر بالعدل، وبيَّن أنَّه بمكانٍ من التقوى بعدما نَهاهم عن الجور، وبيَّن أنَّه مقتضى الهوى".

وقال ابن كثير: " ومن هذا قول عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – «لما بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بِهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبِّي إيّاه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بِهذا قامت السموات والأرض».

لقد انطلق العلماء والفقهاء في نظرتهم وتعاملهم مع غيرهم من المسلمين من قاعدة عظيمة تقرر أن "عدم الإسلام لا يعني الحرب والعداء" ما دامت كل أمة ملتزمة بضوابط السلم والحرية، وبهذا فقد ساروا على درب سلفهم من أن المسالمة حق لجميع الناس على اختلاف دينهم وعرقهم، وأن المعتدي مجرم يعاقبه القضاء الإسلامي على اعتداءه وجرمه، لأن النظام الإسلامي "لا يحب المعتدين" .

هل يستخدم الإسلام القوة ؟

نعم إن الإسلام يستخدم القوة، لكنها في حالة واحدة فقط، وهي: حالة الاعتداء.

فقد أباح الإسلام للمسلمين أن يردوا على من بدأهم بالقتال والظلم بدفع هذا الظلم، وقال في هذا: " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ".

وقد قرر القرآن حالة القتال عند المسلمين وبيّن أن القتال في الإسلام دفاعي لرد الاعتداء، وهو قائم على قاعدة قرآنية عظيمة وهي قوله تعالى " :وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين."

إن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ مأمور بتبليغ الإسلام لكل الناس، فكان يبعث إلى البلاد من يُبلّغ أهلها من المؤمنين .لكن هناك من وقف سدًا أمام الرسل، لا يريدونهم أن يبلغوا الدعوة للناس، وقاموا بمحاربتهم وآذوهم .. فقامت الغزوات والسرايا لدفع هذا الاعتداء وإفساح الطريق أمام الدعوة لتصل لكل الناس .فهل نسمي هذا إرهابًا؟!

إن لأي إنسان الحق في الدفاع عن نفسه إذا اعتدى عليه أحد، فكيف بالاعتداء على الرسالة المنزلة من عند الله لتصل إلى عباده!

وحتى في حروب المسلمين مع المعتدين يلتزم المسلمون بما وجههم إليه دينهم من أن القتال استثناء للقاعدة القائمة وهي "السلم والسلام"، وهذا أبو بكر الصديق _رضي الله عنه _وهو خليفة المسلمين وصاحب رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وقف في جيش أسامة واعظًا فقال:

"أيها الناس، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه ولا

تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

وعندما هزم المسلمون أعدائهم، وكانوا هؤلاء الأعداء في وضع المنتظر للموت جزاءً على أعمالهم، قال الرسول لهم : ما تقولون وما تظنون أني فاعل بكم ؟

قالوا : نقول : ابن أخ ، وابن عم ، حليم ، رحيم .

فقال رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أقول كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

وعندما دخل عمرو بن العاص مصر فاتحا لها رأى أن الظلم والاضطهاد قد بلغ ذروته في البلاد، حتى أن البابا بنيامين (البطريك الـ٣٨) حينذاك قد هرب من المقوقس البطريك الملكاني نتيجة للظروف التي كان يمر بها الأقباط في مصر..

فكتب عمرو بن العاص له: "الموضع الذي فيه "بنيامين بطرك النصارى القبط" له العهد والأمان ولسلامة من الله فليحضر آمن مطمئنا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته".

إن سماحة الإسلام وصلت للذروة حتى يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي، وهو من هو في علو الشأن، لكن الإسلام لا يُحابي إنسانًا على آخر، ومن هنا نُدرك سلام المنهج الإسلامي مع غيره.. وهذا ما جعل كثير من غير المسلمين يشعرون بعظمة الإسلام ويدخلون فيه حبًا غير مكرهين.

ليس هذا كلاما لتحسين صورة الإسلام والمسلمين على مر العصور! ؛ وإنما هو شهادة حقة قد اعترف بها ذوي الإنصاف من غير المسلمين، وهاك واحد من النصارى المنصفين "القمص أنطونيوس الأنطوني" في كتابه "وطنية الكنيسة القبطية

وتاريخها" قد اعترف بحقيقة السلام الإسلامي وسماحة حكمه، يقول: "ان عمرو بن العاص قد رد على النصارى الكنائس التي كان استولى عليها الروم كما سمح لهم بترميم الكنائس التي هدمت، وساعده في بناء كنائس جديدة.. وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ زمان".

فهل فعل غير المسلمين كهذا في عالمنا المعاصر؟!

هل فعل الصهاينة المعتدين كهذا للفلسطينيين المسالمين؟

كلا، لقد فتح الفلسطينيون لهم أبواب رحمتهم عندما طردهم هتلر من ألمانيا وقتل منهم ما يزيد على المليون!

هل فعل الملحد ماوتسي تونج رئيس الحزب الشيوعي بالصين كهذا؟

لقد قتل ماوتسي تونج من معارضيه ما يزيد على الأربعين مليونا من شعبه!

لقد سار المسلمون منذ عصر الرسالة المحمدية على درب السماحة والإخاء، لا نعني بهذا أن المسلمين ملائكة معصومون عن الوقوع في الخطأ!؛ وإنما الذي نرمي إليه هو عدم اشتراك المسلمين في أي أعمال مُنظمة تمثل إرهابا وترويعا للآمنين، فهم لم يكونوا سببا في قيام الحرب العالمية الأولى ولا الثانية، ولم يكونوا مؤسسي محاكم التفتيش في عصور الظلام الوسطى، ولم ينتهكوا أرض الأبرياء كما فعل الصهاينة ..

إن قيام قلة منحرفة من المنتمين للإسلام بأعمال غير مشروعة لتخويف وإرعاب الناس ليس دليلًا على إرهاب المسلمين وانحرافهم! ، فمتى كانت القاعدة تهدم بالاستثناء النادر ؟!

إن الواجب على من بيدهم زمام الأمور والحكم أن يسعوا جاهدين لارساء قيم العدل والمساواة والحرية في حياة الناس لكي لا يلجأ أحد المظلومين اجتماعيا أو سياسيا أو فكريا إلى تنظيمات إرهابية تسعى في الأرض فسادا وإفسادا.

وقد يُـقال: لماذا إذًا الجزية في الإسلام؟

يمكننا أن نجلي هذا الأمر الذي يفهمه الكثير خطئًا بأن الجزية في الإسلام لم تكن يوما فرضا على غير المسلم لعدم إسلامه، وإنما هي في لحقيقة للحماية والمنعة، وليست للقهر والغلبة.

ولذلك كان فعل خالد ابن الوليد عندما رد على أهل حمص أموالهم فهمًا سليمًا للجزية في الإسلام، وقال لهم : إنّا قد أخذنا منكم الأموال على أن نحميكم , ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم ؛ فهذه أموالكم نردها إليكم .

فالجزية كالضريبة التي يقوم بدفعها كل مواطن للدولة، والصِغار في الآية معناه: الخضوع والالتزام لأوامر الدولة وسياستها.

هل أثّر الفكر الإلحادي على هتلر وستالين وماوتسي وأشباههم بالمحبة والإخاء؟!

أم أنه تسبب في الدمار والخراب للإنسانية؟

هل صارت المجتمعات التي تطبق الشيوعية الآن إلى هذا باليُسر؛ أم أنها أجبرت بقوة السلاح في روسيا عن طريق الثورة البلشفية، وفي دول شرق أوروبا بواسطة قوات الجيش الأحمر، عندما سيطر عليها في الحرب العالمية الثانية..

الحرب العالمية الأولى والثانية ومعظم المجازر التاريخية هل كانت بدافع الدين الصحيح؟

إنك يا صديقي العزيز مُلزم بالبحث عن الحقيقة ومعرفة ما إذا كان دينًا من غيره، ولو أن العقلاء فطنوا لعرفوا أسباب الحروب والمذابح والاضطرابات البشرية على مر التاريخ..

إنها المصالح الاقتصادية والسياسية والحُكميّة.. هذه هي أسباب اندلاع الحروب منذ فجر الإنسانية، فلماذا نتهم الدين بالإقصاء والإرهاب؟

هل كانت المسيحية مثلًا هي سبب قيام محاكم التفتيش في عصور الظلام والاضطهاد ؟

الإنصاف العلمي والديني القائم على المعرفة الصحيحة بالدين المسيحي ومصادره يقرر العكس تمامًا، إنها الأفكار المائلة عن الحق والحقيقة هي المتسببة في اضطهاد الإنسان وازدراء البشر.

لقد غزت العالم هذه الترهات الفكرية حتى تمكنت من رقاب دول كبرى تحسب على التدين وإتباع الدين، فأمريكا وغيرها هي رأس المتأثرين بهذه الأفكار الإجرامية حتى تراها تساند المحتلين الإسرائيليين للمسالمين الفلسطينيين بدون حق، وصارت الانحرافات الدينية عند بعض المتدينين صديقًا ودودًا لأصحاب الفكر الإلحادي الغاشم، وهذا ما جعلنا نرى أمريكا وحلفائها منذ "قارعة" ١١ سبتمبر ٢٠٠١، قد أثارت حربًا عالمية على ما تسميه "الإرهاب" دون اتفاق على معنى محدد لهذا الإرهاب!

وكان الدافع لهذه الحرب هو "التدين" المغشوش الذي قررته الكنيسة الأمريكية!

ومما يشهد على هذا إعلان السناتور الأمريكي "إدوارد كنيدى" : "إن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب (بحماسة مسيحية) "!

فمنذ متى كانت شريعة "أدر خدك الأيسر لمن ضربك على الأيمن" عنفًا وإرهابًا؟

إنه الدمار الشيوعي الإلحادي في ثوبه المتدين الجديد، فبعد أن فطن الإلحاد بضعفه وجموده ما لبث أن وضع الذريعة بأيدي أصحاب التدين المغشوش.

إنك لتدرك من الوهلة الأولى أنها ليست حربًا على الإرهاب الحقيقي (الذي يتمثل في إخافة الأبرياء وترويعهم)، والذي مصدره وترعاه دول تتصف بالعظمى وإنصاف الإنسان!؛ وإنما هي حرب على الإسلام ، وقد شهد على هذا التاريخ قديمًا وحديثًا، ومساندة أمريكا لإسرائيل خير برهان على إرهابها وظلمها.

اسمع قول المفكر الاستراتيجي الأمريكي فرانسيس فوكوياما: "إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية.. وضد الدولة العلمانية.. والمطلوب هو حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الحداثة الغربية".

وقد برّأ الإسلام سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات.

لا يغرنك عقلك!

برتراند أرثر ويليام راسل إيرل راسل الثالث، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني حديث.

هذا الفيلسوف اللا أدري الحديث قد كان ذا عقل عظيم في نظرته إلى الدين، لا تشبه نظرته نظرات غيره من الملحدين العاطفيين، هذا الفيلسوف الذي نقم على الدين المحيط به وانتقده نقدًا عقليًا خالصًا كان أقرب للصواب والعقلانية من غيره، إلا أنه انتقد الدين من وجهتين:

الأولى: النظام الكهنوتي

الثانية: المسيحية نفسها

حتى قال في كتابه "نحو عالم أفضل" : "إن الأناجيل لا تشبع جوانب الإنسان الثلاثة: العقل والروح والغريزة".

وقد حاول راسل أن يستبدل هذا الكهنوت المتمثل في رجال الدين المنغلقون؛ برجال لهم أعمال خاصة يعيشون منها ولكسبها، ومتحمسون يدعون إلى الدين بحرية وحماسة وفهم.

من هنا ندرك أن راسل لم يرفض الدين رفضًا يشبه باقي الملحدين، وإنما يتطلع إلى دين له مميزات وصفات خاصة، دين يفهم الحياة والإنسان.

الجوانب التي انتقدها راسل في المسيحية وقال أنها لا تشبع الإنسان جعلته، مع ما عنده من عقل فذ، يُصدر حكمًا عامًا على الأديان كلها والعقائد عندما قال: "وليس الخطأ ناشئًا عن كون عقيدة الكنيسة غير سليمة بقدر ما هو ناشئ عن مجرد وجود عقيدة".

هذا الحكم يعتبر خاطئ وليس بصحيح، فلو أن راسل درس الإسلام وعلمه لعرف أنه يخلو تمامًا من كل ما انتقده في العقيدة المسيحية، فتلبية احتياجات الإنسان من سمات الإسلام الذي جاء بها ليضبط ويهذّب، كما أن الإسلام خالٍ تمامًا من كل تناقض مع نفسه أو العقل أو العلم.. فتصور راسل للدين بناءً على ما شاهده في العالم المسيحي لا يُعد تصورًا صحيحًا، كما قلنا؛ لأنه لابد من التفرقة بين الصحيح والخطأ!

هذه نظرة فيلسوف عظيم من فلاسفة العصر الحديث، لكن نظرته قاصرة عن التمييز بين العقيدة الواحدة وبين كل العقائد، ولأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما هو مقرر عقليًا، فإن راسل أخطأ في حكمه لعدم تصوره للدين الإسلامي تصورًا كليًا قائم على الموضوعية والدراسة.

ريتشارد دوكينز مُلهم الإلحاد في العصر الحديث، والأب الأكبر له، هل ملأ الكون بعقله حججًا وبراهينًا سليمة على نفيه للخالق (الله) ؟

إنه يقول: "من المسلمات التي يقبل بها جميع الناس تقريبًا أن الإيمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة أمام النقد".

فهل استقرأ دوكينز إيمان الخلق جميعًا وتعرف على حججهم عليه حتى يعتبره من مسلمات الضعف عند غالبية الناس؟

فحسب إحصائية عام ٢٠١٠ ، أن غير المتدينين ٩.٦٦% ، والملحدين ٢.٠١% ، أي أن ما يقارب من ٩٠% من الخلق مؤمنون ، فعلى ماذا بنا دوكينز حكمه الغير منطقي ؟

ثم يقول دوكينز في كتابه المزعوم "وهم الإله" : "إن الإسلام نشأ على كتاب مقدس اسمه القرآن، والذي احتوى على توجه فكري جديدة ألا وهو نشر الدين بالقوة العسكرية".

نعم إن الإسلام يقوم على القرآن، لكن من أين لدوكينز أن يقرر أن القرآن نشر الدين بالقوة العسكرية؟

هذا ظلم كبير للقرآن الذي قرر منذ نزوله :

"وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ"

"لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"

و"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"

"وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيؤُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ"

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"

"لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"

انظر إلى ما قرره القرآن من المسالمة وعدم التعرض لغير المؤمنين به، ويأتي دوكينز ليفتري عليه!

أما كان الأحرى أن يدرس دوكينز القرآن دراسة جيدة تؤهله للحكم عليه، لأن المنطق يقول "الحكم على الشيء فرع عن تصوره" !

كما قلنا سابقًا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مأمور بتبليغ الإسلام لكل الناس، فكان يبعث إلى البلاد من يُبلّغ أهلها من المؤمنين. لكن هناك من وقف سدًا أمام الرسل، لا يريدونهم أن يبلغوا الدعوة للناس، وقاموا بمحاربتهم وآذوهم، فقامت الغزوات والسرايا لدفع هذا الاعتداء وإفساح الطريق أمام الدعوة لتصل لكل الناس. فهل نسمي هذا ظلمًا؟

هل الحرية التي ينشدها دوكينز ترفض الدفاع عن النفس ؟

مع أن هذه الغزوات والسرايا كان القتلى من المسلمين والمشركين معًا أقل من ألفي قتيل، لأن المسلمين يحافظون على الدماء –قدر الإمكان– ويعرفون قدرها. وهذا ما سار عليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم طيلة حياته:

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ" .

هكذا يسير ريتشارد دوكينز في كتابه "وهو الإله" في النقد للدين، وقد جانب الحق والعقل في كتابه بإدعائه احترام العقل والعلم وهو لا يقرر حكمًا قائمًا على علم ومنطق صحيح ، ولا يقوم حتى على دراسة موضوعية جيدة للقرآن الذي انتقده..

فهل هذه العقول تستحق الاتباع والتأييد؟!

.. اللهم إن هذا ظلم عظيم !

لماذا القرآن؟

هل نؤمن بالقرآن وندعو للإيمان به من منطلق العاطفة والحماسة ؟

هب أنه كذلك، فهل يقبله الإسلام؟

إن القرآن يأباه، إنما يريد القرآن أتباع عقلاء لا يقبلون شيئًا إلا بعد اقتناع واستدلال، فآيات الله المتنوعة قد جاءت لتعقيل الناس أساسًا.. فكيف تُقبل بغير تعقل والله يقول: "وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" ؟!

إن القرآن كمنهج إلهي موضوع للعباد قد قرر بداية أن تعاليمه في صالح الناس ولا تخالف عقولهم الصحيحة ومنطقهم السليم، فقال رافعًا راية القرآن في التعقّل والدعوة إليها "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ."

وقد كان الإيمان بالقرآن إيمانًا عقليًا سليمًا، قائم على الحجج والبراهين الساطعة التي تمنحه الذُروة في أعين العقلاء لما به من نور يعجز أمامه العقل ويسلم بمصدريته الحكيمة في إفحام العقول.. كيف لا والمصدر واحد للعقل والنقل!

فالذي بعث كتابًا لعباده الذي خلقهم ليتبعوه، هو الذي دلل بالحجج المعجزة على صدق كتابه وعلوه.

وقد تكلم العلماء قديمًا عن أسباب الإيمان بالقرآن الكريم، نوجز بعضها فيما يلي:

عندما يأتي إنسان بدعوى معينة فإن عليه واجب إثبات صحة دعواه، ولما أنزل الله الخالق على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الدين الخاتم كان ذلك أحرى بالتأييد المعجز الذي لا يستطيعه مُعاند، وقد تعددت مظاهر هذا التأييد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ولشريعته الخاتمة (الإسلام).

ومن مظاهر هذا التأييد البليغ:

1- الخوارق المادية الجارية على أيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم تقضي بصدقه وصحة بلاغه، وهذا أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما. وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الحادثة حين قال " اقتربت الساعة وانشق القمر."

لكن هناك من يقول أنه لا أثر للانشقاق علميًا على القمر حديثًا! وهذا القول أبعد للعقلانية المؤمنة حيثُ أن المعجزة المادية المحسوسة التي وقعت بالانشقاق قد حصلت للمشاهدين الحاضرين الواقعة، وقد التحم القمر مرة أخرى وكأنه لم يكن شيئًا!؛ وهذا من عظيم الإعجاز، فمن الذي يقدر على خرق سنة كونيّة وإرجاعها كما كانت بدقة وإتقان دون خلل؟!

وغير هذه المعجزة الكثير والكثير مما يشهد بالصحة للرسول ولكتاب الله المنزل عليه، وهذه أمور متواترة عبر التاريخ، وإنكار التاريخ لا شك أنه سفه وقلة علم.

2- إخبار القرآن الكريم عما حدث في الماضي وعما سيحدث في المستقبل، فهذا يدلل على أن هناك ذاتًا عليا تعلم كل شيء وتُعلم بها من تشاء للتصديق والاطمئنان، ومن هذه الأمور الإخبار بموت أبي لهب كافرًا، يقول تعالى:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥).

لقد أسلم كثير من المشركين الذين حاربوا الإسلام بكلّ قواهم، مثل «خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص... وغيرهم». وظل أبو لهب على عناده وكفره، فكيف أمكن التنبّؤ بأنّه بالذات لن يُسلم، ولو نفاقًا وحَقْنًا لدمه، وأنّه سيموت على كُفره؟

ولماذا لم يعلن أبو لهب إسلامه ولو كذبًا؟ ففي ذلك تكذيب للنبي والقرآن، وتنفير للناس منه!

3- والرؤى الصالحة: يقول الدكتور فاضل السامرائي: «ومما يقطع بوجود الله ظاهرة الرؤى الصادقة، التي تكون كفلق الصبح صادقة تمامًا.

فكيف تحدث مثل هذه الرؤى؟

ومن الذي أخبر الإنسان بهذا الغيب المجهول؟

الإنسان لا يعلم الغيب، ولكن عن طريق الرؤى الصالحة قد يحصل له شيء من ذلك، فما تفسير هذا الأمر؟

إن تفسيره واضح وهو أن هناك ذاتًا تعلم الغيب وسجلته وهي تطلع من تشاء من عبادها على بعض هذا الغيب عن طريق الرؤى أو طريق آخر . ولا تفسير لها غير هذا التفسير.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: "وقد يقول قسم من الملحدين هذا من قبيل المصادفة!

فنقول: إن هناك كثيرًا من الرؤى لا يمكن تفسيرها بالمصادفة. ثم إن كثرتها لا تدع مجالًا لتفسيرها بالمصادفة. كما أن سياقها يدل على القطع والتوكيد، لا على الظن والتخمين. فالمصادفة قد تقع في أمر واحد أو اثنين ولكنها لا تقع في كثير من الموافقات."

نبيٌّ يرى ما لا يرى الناسُ حولهُ ** ويتلو كتابَ اللهِ في كلّ مسجد

وَإِنْ قَالَ في يَوْمٍ مَقَالَة غَائِبٍ ** فتصديقُها في اليَوْمِ أوْ في ضُحى الغدِ

4- فصاحة القرآن الكريم وبلاغته، وهذا ما يؤكد على حقيقة دعواه في أن مصدره إلهي قد جاء للبشر ليأخذ بأيديهم إلى النور، وقد أنزل أول أنزل في قوم أعرف الناس باللغة وأشدهم فصاحة وبيانًا، وقد أعجزهم هذا الكتاب بفصاحته التي لا تدانيها فصاحة، فهو نسيج وحده، ولعل هذا ما جعل الشيخ «محمد عبد الله دراز» يتعجب ويقول: "لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونيةمعجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات".

وقد قام حديثًا مجموعة من رافضي القرآن الكريم بدعوى "قبول تحدي القرآن الكريم" فألفوا كتابًا سمّوه بـ "الفرقان الحق"، وهو كتاب مكتوب باللغة العربية عن طريق

محاولة استنساخ كتابات مطابقة القرآن، ودمج عناصر من تعاليم المسيحية التقليدية.
والغريب العجيب أنهم يفتتحون ما يسمونه "سور" الفرقان! ؛ بقولهم " بسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد."
فكيف ثلاثة في واحد؟!

هل هذا مقبول عقليًا؛ ليُقبل بلاغيًا وبيانيًا ؟!

إنهم يبررون هذا بالتمثيل فيقولون: "هذا كاالشمس الواحدة فيها ذات وهو كتلة الشمس؛ أو ما نسميه قرص الشمس؛ وهذه الشمس تولد النور وتنبثق منها الحرارة ... والإنسان فيه الروح والنفس والجسد ..وهو ليس ثلاث بشر وإنما إنسان واحد... وهذا يشبه قول المسلمين: بسم الله الرحمن الرحيم".

ولكن لا يعلمون أن الفارق بينهم وبين العقلاء المسلمون أن في عقيدة المسلمين هذه صفات لله الواحد، وهذه الصفات متصفة بالذات متعلقة بها لا تنفك عنها ولا تنفصل. أما عند المسيحيين فهذه ليست صفاتًا لعدة أمور: هم يقولون أن المسيح كلمة الله أقنوم ، والروح القدس أقنوم ، والله الأب أقنوم، كل أقنوم منهم مغاير للآخر بصفته المميزة له؛ فالأب صفته الإيجاد والتكوين، والأبن صفته الفداء، والروح صفتها التقديس.

يقول البابا كيرلس عمود الدين: "الآب سيظل أبًا ولن يتحول إلى ابن، والابن سيظل دائمًا ابنًا ولن يتحول إلى آب، وخاصة الآب هيَ أنه {غير مولود} بينما خاصية الابن ستظل {المولود} وبما أن هناك فرقًا كبيرًا بين {غير المولود} و{المولود} فسوف يظل الآب والابن مختلفين".

هذا التغاير ينفي الاتحاد الذاتي، لأنه لو كان الثلاثة ذاتا واحدة ما كان هناك صفات وجودية مميزة لكل منهم كالابن المولولد لا يكون الوالد.. ثم الأقنومية المزعومة التي يقولون أنها لا تستلزم الانفصال لا تتماشى مع عقيدتهم التي تقرر ضمنيًا أن الصفة تستقل وتنفصل عن الذات، وهكذا تُعد ذاتًا قائمة بنفسها ما دامت استقلت.

هذا ما يتحدون به القرآن الكريم!

قارن أنت بعقلك هذه الركاكة اللغوية والعقلية في فرقانهم المزعوم:

1. سورة الفاتحة: بسم الآب الكلمة الروح الاله الواحد الأوحد ١)

هو ذا الفرقان الحق نوحيه فبلغه للضالين من عبادنا و للناس كافة و لا تخش القوم المعتدين ٢)

مهيمن يحطم سيف الظلم بكف العدل و يهدى الظالمين ٣)

و يهدم صرح الكفر بيد الايمان و يشيد موئلاً للتائبين ٤)

و ينزع غل الصدر بشذى المحبة ويشفى نفوس الحاقدين ٥)

و يطهر نجس الزنى بماء العفة و يبرئ المسافحين ٦)

و يفضح قول الإفك بصوت الحق و يكشف مكر المفترين ٧)

فيأيها الذين ضلوا من عبادنا توبوا و آمنوا فأبواب الجنة مفتوحة للتائبين.

2. سورة النور: بسم الآب الكلمة الروح الاله الواحد الأوحد ١)

هو ذا النور الأقدس قد أشرق فجاء الحق و زهق الباطل فليهتد التائهون ٢)

و اقتربت الساعة وانشق الباطل فلا عاصم اليوم من أمرنا فويل للمفترين ٣)

و انبلج الصبح فليبصر العُمْى و حصحص الحق فليؤمن الكافرون ٤)

و الذين طمسوا على أعينهم بأيديهم لئلا يبصروا نور الحق فهم منافقون جاهلون ٥)

و الذين جعلوا أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا كلمة الحق فهم المغضوب عليهم وهم الضالون ٦)

فيأيها الذين ضلوا من عبادنا لقد جاءكم الفرقان الحق يبين لكم الرشد من الغى فلا إكراه فى الدين أفلا تؤمنون؟٧)

إنا أنزلناه نوراً على قلب صفينا فخطه كلماً بأعيننا و ألقاه فى أسماعكم و أبصاركم و فى قلوبكم و بين أيديكم ليطهركم من الكفر و يخرجكم من الظلمات إلى النور لعلكم تهتدون.

قارن بين هذا وبين القرآن الكريم الذي يقول:

1.سورة الفاتحة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧).

2.من آيات سورة النور: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨).

انظر إلى البعد العقلي والبياني بين ما زعموه وبين كتاب الله الكريم!

ولعل هذا ما جعل الشيخ محمد عبد الله دراز يتعجب ويقول: «لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم

النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات".

لقد ظل كتاب الله العزيز منذ الوهلة الأولى بنزوله على رسول الله محمد _صلى الله عليه وسلم_ رافعًا راية الرُقي الخطابي على مر العصور، حتى إن فحول كل عصر على مدار التاريخ قد انبهروا بفصاحته؛ ليست الفصاحة اللغوية فقط؛ بل والنفسية والعلمية والإخبارية والتأثيرية في النفوس..

ولا عجب من كتاب لا تنتهي عجائبه كالقرآن العظيم؛ إذ أنه كتاب الله الخاتم الذي قد جعل أساسًا للطريق القويم لكل الناس إلى قيام الساعة.. فكيف به لا يُلبي احتياجات النفوس الفطرية المختلفة!

لقد كان –ولا زال– يهدي الحائرين بروعته الخلابة على مر العصور ليؤكد على شيئين عظيمين:

الأول: أن مصدره خالق الأكوان؛ العالِم بأحوال عباده.

الثاني: قدرته على القيادة والاتباع في هذه الحياة باختلاف أزمنتها وعصورها.

براعته في تأصيل المعرفة:

بنا القرآن الكريم المعرفة السليمة دوما بالحجة والبرهان، المتلازمان؛ لإخراج اللائق من الأفكار والأطروحات، فدعانا إلى عدم التسليم بشيء إلا بعد الدليل الواضح فقال: "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"

حتى في أرفع القضايا وأعظمها، فقضية الخالق أشرف القضايا المعرفية المتوقفة على الإدراك الحسن لها ، فلا نسأل عنه إلا خبيرًا به ،يقول: " الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً".

وقال: "فاعلم أنه لا إله إلا الله".

إذا كانت هذه الدعوة للمعرفة في أخص قضايا الشأن الإلهي المُعظم؛ فما بالنا بقضايا الفكر والمنطق العامة في جميع المجالات!

إن الأحرى بنا أن نسير على منهج القرآن في تحصيل المعرفة والعلوم حتى نستطيع أن نساهم في الحياة بشعاع يخدم الناس ويُريح عقولهم وتعبهم .

وقد أدرك النبي _صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة المعرفية في القرآن الكريم حتى أنه قال: "لا يكن أحدكم إمّعة، يقول : إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت. ولكن وطنوا نفوسكم إن أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا لا تسيئوا".

فلا يليق بالعقل المسلم الذي كان القرآن معلمًا له أن يسير كالقطيع بدون تفكّر وتعقّل للأمور، حتى لا يتسبب في هلاكه ويجر معه الأبرياء من الناس بسبب غفلته العقلية.

البراعة اللغوية:

أنزل الله عز وجل كتابه إلى أفصح الناس وأبلغم باللغة وعلومها، ولما آتاهم بحرارة الإيمان ، وقوة البيان، وتدفق البلاغة، والنور الباهر، والحق الساطع.. سجدوا لله خاشعين ، حتى أن منهم من كان يتردد خفية على الأماكن التي كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يتعبدون فيها، فيستمعون منه القرآن ..

وما كان أمرهم تجاه القرآن الذي تحداهم منذ نزوله إلا أنهم كانوا يقولون: "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه.."

يدعون الناس لعدم مجرد السماع للقرآن الكريم لعلمهم قوة تأثيره وجذبه للقلوب؛ كيف لا وهم أنفسهم كانوا يذهبون ليستمعوه من رسول الله حين يقرأه!

لقد ضرب القرآن أعظم تحدي بلاغي عرفه التاريخ حين قال: "الم" ، "الر"، "كهيعص" ، "حم" ، "عسق"..

ويكمن سر بلاغته في أن هذه الحروف المقطعة كانت من عظيم فصاحته الدالة على رقيه ومصدره العلي، فهذه الحروف تفيد (التنبيه) لما سيعقبه من تحدي لمن يقف أمام القرآن الكريم متحديًا .

فكأنه يقول: أيها العرب، يا أعلم الناس باللغة، يا أعلم الناس بالفصاحة، يا من تتباهون بالكلمة وتُقيمون بها الأسواق بيعًا وشراءً.. أيها البلغاء: (ا ل م ، ا ل ر ، ح م ، ع س ق ، ك ه ي ع س ق ..) أليست هذه هي حروف اللغة العربية التي تتفاخرون بها وتؤلفون بها الأشعار والهجاء؟

لقد جاءكم كتاب من ربكم العظيم بهذه اللغة يتحدى العالمين أن يأتوا بمثله؛ بل بأقصر سورة من مثله!

ثم يقول تعالى متحديًا لهممهم ومثيرًا لعزمهم: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ".

يقول القرطبي في تفسيره "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا" : (قوله –فإن لم تفعلوا– يعني في ما مضى ، _ولن تفعلوا_ أي : لن تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممهم وتحريك

لنفوسهم ، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها).

براعته في صناعة الرجال:

إن الشجاعة وقول الحق وصنع الحضارة وإقامة العدل لهي شيم الفُضلا من الرجال، وقد كان القرآن صانعًا لهذا الصنف من الرجال الذين لا يعطون الدنيّة من دينهم ولا من أمتهم ولا من القيم العادلة مع غيرهم من المسلمين، وبهذا قد خلقت حياة رفيعة في حياة البشر هي مثالًا _وستظل_ لكل مقدام ساعٍ إلى صنع الرُقي والتقدم..

ومن تأمّل التاريخ يجد أن هذا الكتاب العظيم (القرآن الكريم) قد خلق أمثل النماذج البشرية متمثلين في الصحابة والسائرين على دربهم، فكان منهم الخليفة الراشد، والقائد المحنك، والبطل المغوار، والسياسي الداهية، والعبقري الملهم، والعالم العامل، والفقيه البارع، والعاقل الحازم، والحكيم الذي تتفجر من قلبه ينابيع العلم والحكمة، والتاجر الذي يحول رمال الصحراء ذهبا، والزارع والصانع اللذان يريان في العمل عبادة، والكادح الذي يرى في الاحتطاب عملا شريفا يترفع به عن التكفف والتسول، والغني الشاكر الذي يرى نفسه مستخلفا في هذا المال ينفقه في الخير والمصلحة العامة، والفقير الصابر الذي يحسبه من لا يعلم حاله غنيا من التعفف، وكل ذلك كان من ثمرات الإيمان بالله، وبكتابه، وبرسول الله، وبهذا كانوا الأمة الوسط، وكانوا خير أمة أخرجت للناس..

ففي الجهاد تجد شيخًا كبيرا كأبا طلحة الأنصاري صاحب رسول الله وأحد الذين أحاطوا بالنبي يوم أحد، قرأ سورة التوبة ، فأتى على هذه الاية: "انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا.."، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبابا جهزوني يا بنيّ، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى

مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر غازيا، فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد تسعة أيام ولم يتغير، فدفنوه بها.

وقال الإمام الزهري: خرج سعيد بن المسيّب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنّي الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع.

فما هذه الهمّة التي صنعها القرآن في نفوس الرجال!

إنها همّة النور الهادي من الظلمات، الذي أنزله الله عز وجل لعباده ليأخذ بأيديهم من براثن الجهالة والضلالة إلى نور الإسلام وضياء الإيمان.

تأثيره بالهدى:

لقد أثار القرآن حمية الهدى في قلوب الرجال وأزال قيود الطغيان من على الأفئدة بضياء حسنه وجماله، كيف لا وهو كلام رب العالمين!

انظر كيف غير القرآن الكريم رجلًا كان من أئمة الكفر وقادتهم ليُصبح قائدًا مسلمًا عظيمًا، تذاع حكايات عدله وحنكته على مر العصور افتخارًا ..

إنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ عندما كان في ستار الضلال حتى خرج يقول: أريد محمدا هذا الصابِئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله!

فقيل له: لقد غرّتك نفسك يا عمر!! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك، وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت

الخطاب، فقد– والله– أسلما.

فرجع عمر عامدا إلى أخته وزوجها، وعندهما خباب بن الأرت معه أخته فاطمة

بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها حتى سال منها الدم، فلما فعل ذلك قالا له: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك !

فلما رأى هذا الرجل الشجاع _عمر بن الخطاب_ ما كان بأخته من الندم والبكاء على حاله، أدركته لحظة من التجلّي الإلهي الذي هيمن على قلبه فسكنت جوارحه واطمأنت نفسه، وتحول من وحش للظلم والكفر إلى الإيمان والإسلام عندما قال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد _ وكان عمر قارئًا كاتبا.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنما نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها ليردّنها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: طه (١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (٤) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى.

ويروى أنه قال: لما قرأت «بسم الله الرحمن الرحيم» ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رجعت إلي نفسي فأخذت الصحيفة، وأنه كلما مر باسم من أسماء الله ذعر!

فلما قرأ صدرا منها حتى بلغ قوله تعالى: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) .

فقال: ما ينبغي لمن يقول هذا الكلام أن يعبد معه غيره، ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر – والله– إني لأرجو أن يكون الله خصّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر.

فقال له عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ائذن له» فأذن له الرجل، ونهض له رسول الله حتى لقيه، فأخذ بمجامع حجزته ، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة ارتعد منها

عمر وجلس، وفي رواية: فما تمالك أن وقع على ركبتيه ، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب» ؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»

فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسول الله، وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم، وكبر المسلمون تكبيرة علم منها أهل مكة أن عمر قد أسلم .

انظر إلى حياة هذا الرجل!؛ لقد تحوّل من قائدا للضلال إلى داعية للإسلام بكلمات قليلة من كتاب الله العظيم!

فهل تصنع كلمات متهافتة هذا التغيير الجذري في عقائد راسخة ؟!

إنه كتاب الله ذو النهج الرائع والبيان الساطع والأسلوب المؤثر الراقي.

الإنسان بين الاهتمام الإسلامي والعناء الإلحادي!

الله عز وجل خلق الإنسان وكرمه عن باقي خلقه فقال: "ولقد كرمنا بني آدم". وقد وضع الله عز وجل لهذا الإنسان في حياته منهجًا وطريقًا يسير عليه بعزة ورفعة، وهذا المنهج هو ما يمثله الإسلام في توجيهاته ومبادئه العليّة.

فكيف اهتم الإسلام بالإنسان؟

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (طفلًا):

قال صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

ومن أهم الأشياء التي أوجبها الإسلام للطفل حق الرعاية والتربية حتى ولو كان الطفل لقيطا أو منبوذا. فقد أوجب الإسلام تربية الطفل اللقيط أو المنبوذ ورعايته والإحسان إليه حتى يكبر.

وهناك كثير من الأدلة التي تؤكد أن تربية الطفل وتعليمه هي من أوجب الأشياء على ولي الأمر نحو ولده.

والأحاديث النبوية التالية هي بعض أمثلة على ذلك:

١. "ما نحل والد ولدا أفضل من أدب من حسن".
٢. "رحم الله عبدا أعان ولده على بره بالإحسان إليه والتآلف له وتعليمه وتأديبه".
٣. "لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين".
٤. "حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي".

ويقول ابن قيم الجوزية: "من أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة.

وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم". ويتساوى في هذا الاهتمام بالتعليم الولد والبنت على السواء.

فمن عود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة في الصغر حاز بذلك الفضيلة ونال المحبة والكرامة وبلغ غاية السعادة".

ويقول الغزالي في نفس المعنى: "الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يقال

فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه كل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له".

كما يؤكد الاهتمام الإسلامي على ضرورة احترام الطفل واحترام شخصيته وعدم التقليل من شأنه لصغره. كما يجب معاملته باللطف واللين، ومن الشواهد على ذلك: أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا مر على الصبيان سلم عليهم، واقتدى صحابته به في ذلك.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لا يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا".

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلاطف الأطفال ويمازحهم ليدخل السرور على قلوبهم كما كان يهش ويبش في وجوههم. ويروى أن أناسا من الأعراب قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قال: "نعم" قالوا: لكنا والله ما

نقبل: قال صلى الله عليه سلم: "أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلوبكم" وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان له صبي فليتصاب له".

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (شابًا):

مرحلة الشباب أزهى مراحل العمر وأقواها؛ فهي كنز إن حسن استغلالها، كما أن هذه المرحلة نقمة لمن أساء إدارتها، وقد كان من اهتمامات الإسلام العظيمة اهتمامه بالشباب..

والشباب فترة لا تضاهيها فترة في عمر الإنسان، فهي فترة القوة والتفتح العقلي والذهني والنشاط البدني.. ولهذا كان السؤال عن هذه الفترة بالتحديد من إسلامنا العظيم لينبهنا على عِظمها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عُمُره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه».

فهي فترة التأثير والتأثر، والعطاء والبذل، فلا غرو إن وجدنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام يوجه بحسن استغلال هذه الفترة فيقول: "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك".

<u>ويمكننا أن نوجز بعض مظاهر هذا الاهتمام فيما يلي:</u>

١. الأم الصالحة: من أعظم مظاهر الاهتمام الإسلامي بالشباب أن اهتم بداية بمنبع تربية الطفل حتى يصير شابًا مسلمًا كريمًا، فاهتم باختيار الأم الصالحة له

لتنشئه تنشئة إسلامية صحيحة، لأن الإنسان إذا أراد أن يبذر بذرا اختار له الأرض الصالحة بغية أن يخرج نباته بإذن ربه، والأمر بالنسبة للزوجة أجل خطابا وأعظم هولاً، لأنه إنتاج بشري وذاك إنتاج زراعي، وفرق شاسع بين إنتاج وإنتاج، فلا عجب إن دعا الإسلام إلى التدقيق في اختيار الزوجة والنظر إليها والوقوف على أخلاقها ودينها حتى يكمل الانسجام، وتزداد المحبة، وصولا إلى عش الزوجية الهادئ الذي يستقبل الأبناء في عطف وحنان فيترعرعون في ظله؛ ليقدمهم إلى المجتمع شبابًا أصلاء ونساء عريقات يقومون بخدمة الأمة وتلبية احتياجاتها.

وقديما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ** على ما كان عودة أبوه

وقالوا: كل قريب بالمقارن يقتدي.

٢. الثقافة: اهتم الإسلام بتثقيف الشاب وتعليمه، فهو يزوده في وقت مبكر بثقافة تتناسب مع سنه وتصلح أساسا لثقافة كليّة كاملة، فحين نعلمه الصلاة نعرفه بآداب قضاء الحاجة، ونواقض الوضوء.. وهكذا.

فالثقافة لازمةٌ للأولاد؛ لأنها ترشد سلوكهم، وتضبط نوازعهم، وتصون خطاهم من الانحراف. ويقول أبو حنيفة النعمان في رسالة إلى المتعلم أبي مقاتل: "اعلم أن العمل تبع للعلم، كما أن الأعضاء تبع للبصر. فالعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير. ومثال ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية أنفع من الجهل مع الزاد الكثير، ولذلك قال الله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} .

٣. الحث على السعي في طلب الرزق: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. وقد حثنا الله على الكسب. قال تعالى {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} . وقال صلى الله عليه وسلم: "من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة". وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس". وقال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق".

وقال لقمان الحكيم لابنه: يا بني استعن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته. وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به. ويعد تكسب الإنسان لمعيشته في الحياة الدنيا من المباحات في الشرع لكنه واجب عليه، ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب. وقد استحسن النبي صلى الله عليه وسلم من وفد عبد قيس لما سألهم: "ما المروءة؟ " فقالوا: العفة والحرفة.

ونظم الزرنوجي في هذا المعنى:

دعي نفسي التكاسل والتواني ** وإلا فأثبتي في ذا الهوان
فلم أر للكسالى الحظ يعطي ** سوى ندم وحرمان الأماني

٤. الاهتمام بالنفس: لأهمية الجسم في التربية الإسلامية أمرنا الإسلام بالعناية بصحتنا وأجسامنا "إن لبدنك عليك حقا"، فهناك حق البدن على صاحبه وجعل طهارة الجسم شرطا للعبادة. كما أمرنا أن نجمل مظهرنا بنظيف الثياب

وأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد. وتخاطب التربية الإسلامية حواس الإنسان وقواه. وتحتكم إليها {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} . والإنسان مسئول عن الحفاظ على حياته وحمايتها من الخطر والحفاظ على جسمه وضرورة العناية به ووقايته وحمايته وعلاجه إذا ألم به مرض. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات ... فقال الله بادرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة". وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا قوله: "من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا فيها أبدا. ومن قتل نفسه بحديدة فحديديته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا".

٥. التوجه نحو الخير: التربية الإسلامية موجهة لما فيه خير الفرد والمجتمع فهي توجه الإنسان إلى الفضيلة بالالتزام بالخلق الكريم والتحلي بجميل الصفات ومعاملة الناس بالحسنى "فالدين المعاملة"، وحث الإسلام المسلمين على الخير وكل ما فيه سعادة الناس جميعا وجعل حب الخير للآخرين من تمام الإيمان "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". كما اهتم بتنمية نزعات الخير في الإنسان من تعاطف وتراحم وتواد وتآخ وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر و "مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". وجعل الإسلام مصالح العباد من أفضل العبادات، ويقول عليه الصلاة والسلام: "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله".

وقال الشاعر في نفس المعنى:

الخلق كلهم عيال الله تحت سمائه ** وأحبهم طرا إليهم أبرهم بعياله

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (شيخًا كبيرًا):

إن الإسلام بلغ الذروة في الاهتمام بالإنسان شيخًا كبيرًا، كيف لا وقد أفنى عمره في طاعة الله ونفع الناس؛ والسير على منهج الله القويم.. وقد جاء البيان النبوي الشديد باحترام الكبير وتوقيره واعتبار المنتقص من قدر الكبير خارجًا من حدود المسلمين أخلاقًا ومنهجًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لا يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا". وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ".

فهل هناك بيان كهذا يحض على توقير الشيخ الكبير في السن ؟!

بل إن إكرام الكبير يجلب حب الله عز وجل ويقيد الله له من يكرمه عند كبره، روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ".

وقال يحي بن سعيد المدني قال: بلغنا: أَنَّ مَن أَهانَ ذَا شَيبةٍ لَمْ يَمُتْ حتَّى يَبعثَ اللهُ عَليهِ مَن يُهينُ شَيبَتَهُ إذَا شَابَ.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

أحسن وأنت معان ** يا أيها الإنسان

إن الأيادي قروضٌ ** وكما تدين تدان

الاهتمام الإسلامي بالعقل الإنساني:

لقد اهتم الإسلام بعقل الإنسان أيما اهتمام، حيثُ جعله الأساس الرصين الذي تؤسس عليه العقائد والأفكار، ولا يصير الإنسان المسلم مكلفًا إلا إذا كان عاقلًا، وقد فهم علماء الإسلام هذه المنزلة الجليلة التي أعطاها الإسلام للعقل فعدوا العقل من مقاصد الدين الأساسية وعنونوه بمقصد "حفظ العقل"، ولهذا المقصد في شريعتنا الإسلامية قدر بالغ.. ويجلي هذا القدر ما يلي:

١. تحريم كل ما يؤذي العقل ويغيبه: النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (كلُّ مُسكرٍ حرامٌ) ، وقال صلى الله عليه وسلم: (كلُّ ما أسكر عن الصَّلاة فهو حرامٌ) ، صلى الله عليه وسلم: (ما أسكر كثيرُه، فقليلُه حرامٌ) ، وعندما جاءه رجل يسأله عن صنع الخمر، نهاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال الرجل: إنَّما أصنعُها للدَّواء، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (إنَّه ليس بدواءٍ، ولكنَّه داءٌ).

٢. عدم التسليم لشيء إلا بعد الدليل والحجة:فقد دعا إلى إعمال الفكر وعدم التسليم لشيء إلا بالأدلة والبراهين ,فقال" :قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " .وكثيرا ما يقول " أفلا ينظرون " , "أفلا يتدبرون , "مُشيراً إلى فضل التفكير ومنزلته.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة " :ان الإسلام دين العقل ، فما من أمر جاء به إلا كان موافقا للعقل يدركه ويصدقه . . سئل أعرابي : لماذا آمنت بمحمد ؟ فقال : ما رأيت محمدا يقول في أمر : افعل ، والعقل يقول : لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول في أمر : لا تفعل ، والعقل يقول : افعل . . . وإن النظم التي سنها الإسلام لا تزال برونقها وصفائها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم ، سواء أكان ذلك في نظام الحكم ، أم في نظام المال ، أم في نظام الأسرة . . . فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية ، وفيه علاج أدوائها . "

٣. جعل الإسلام العقل سبيل المروءة للإنسان، فعن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَرَمُ الْمَرْءِ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ». وقال مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذُكِرَ الْحَسَبُ فَقَالَ: «حَسَبُ الْمَرْءِ دِينُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ». وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُعْجِبَنَّكُمْ إِسْلَامُ امْرِئٍ حَتَّى تَعْرِفُوا مَعْقُودَ عَقْلِهِ».

٤. كلما ارتقى عقل الإنسان ارتفعت درجاته عن الله: فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا يَرْتَفِعُ النَّاسُ فِي الدَّرَجَاتِ وَيَنَالُونَ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ» ، و قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا الشَّاهِدُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَعْثُرَ عَاقِلٌ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ لَا يَعْثُرَ إِلَّا رَفَعَهُ حَتَّى يَجْعَلَ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَنَّةِ» .

يُعَدُّ عَظِيمَ الْقَدْرِ مَنْ كَانَ عَاقِلَا ** وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ بِحَسِيبِ
وَإِنْ حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ ** وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلْدَةٍ بِغَرِيبِ

فكيف اهتم الإلحاد بالإنسان؟!

لقد أزال القانون العام المطلق للأخلاق، فلكل إنسان أن يتخلق بما شاء وأن يفعل ما يريد؛ حتى لو تزوج الرجل رجلًا، والأنثى أنثى، والإنسان بهيمًا..!

لقد خلق الإلحاد فكرة العدمية الخالقة وجعلها دينًا يتبعونه في حياتهم بدلًا من دين الله..

لقد نزل بالعقل من سمو الارتفاع المنطقي وسلم العلا الفكري إلى دركات الانحراف السلوكي والجهل المعرفي..

لقد أزال الضوابط التي تحفظ الفرد والمجتمع من التعدي والإضرار بالغير!

فأي منهج يطالبوننا باتباعه، وأي طريق نسلك؟!

القسم الثاني

العلمانية

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إن من الضرورة الإنسانية التي تقتضيها الحياة لمن كانت همته تغيير المستقبل وتوجيهه إلى الأصلح والأمثل؛ أن يرجع إلى ماضي الإنسان ويتعمّق في أحواله باحثًا ومنقبًا عن عوامل ارتقائه و أسباب انحداره، ليتفادى ما قد يضر بالمستقبل والناس.

إن هذا المُنصف الموضوعي الذي نظر إلى الماضي ليُشرق به حاضر المستقبل ليأبى أن يسير خلف مستبدي الحضارات ومغتصبي الأفكار؛بل يُصرّ في استعلاء إلا أن ينطق بالحقيقة الواقعة التي قررها التاريخ البشري بإنصاف ومصداقية.

إذا كان هذا هو واجب أي باحث عمومًا ؛ فإنه في حق المسلم خصوصًا أوجب حتى أن الإسلام قد حثّ عليه للعبرة والاعتبار فقال:

"أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" .

هذا السير الفكري والعلمي بالبحث والمعرفة الصحيحة هو سبيل الارتقاء بالشعوب والمجتمعات، ولذلك فإن التاريخ ليأبى في عناد كبير إلا أن يسجل ما أحرزه المسلمون في حياتهم وما قدموه للإنسانية ، هذا التاريخ يأبى أن يستحقر ماضي المسلمين وتأثيرهم الإيجابي على غيرهم من باقي شعوب الأرض في شتى فنون المعرفة ومجالات الحياة.

ولهذا فإن تاريخ المسلمين حافل بالعطاء والازدهار عندما حكموا باسم الإسلام، وقد كان تأثيره كبيرًا إلى حد أنه جعل من ظلام الأرض نورًا مشرقًا تهتدي به حيارى

المجتمعات.. وقد كانت لأوروبا نصيب وافر من هذا التأثر الإسلامي النافذ بعمقه إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ومع أن هذه حقيقة تاريخية إلا أن هناك من يُحاول في استكبار أن ينكرها وأن ينسب إلى لنفسه الإبداع الخالص في هذه الحياة، ومن واجبنا كمسلمين أن نبيّن ما يزوره هؤلاء الناس وأن نعلن للعالم كله المنبهر بحضارة أوروبا الراقية ما قدمه الإسلام والمسلمون للحياة وللإنسان.

لقد انطلق المسلمون من قرآنهم الذي يقول: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"، "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

ومن نبيهم الذي يوجههم: "لا يَغرس مسلم غرسا، ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة"؛ انطلقوا في الأرض يبذلون الغالي والنفيس لأجل الناس ومنافعهم، وإنك لتدرك هذا من الوهلة الأولى في دراسة تاريخ عصر النبوة وما بعده من عصور أئمة الرشاد ومن بعدهم من المهتدين..

وليست هي حالة زمنية فردية كانت وانتهت!؛ إنما هي نتيجة محققة بتحقق الأسباب الكامنة في التطبيق الإسلامي في حياة الأفراد. إذا علمت هذا؛ علمت أن تمدن الحضارة الأوروبية حديثًا وتطورها الباهر في شتى المجالات والفنون؛ هذا الرقي الظاهر ليس من اختراع العقل الأوروبي الخالص ، .كما أن الغرب ليس هو الذي ابتدع وابتكر الازدهار الإنساني العام في هذه الحياة!

ولأجل هذا ومن أجل ألا يُقال: إن الغرب صاحب الفضل الأمثل على الإنسانيّة جمعاء بعقليته وجهوده المبهرة، ويتم اختزال الجهود العربية والإسلامية التي ساهمت في قيام الغرب نفسه؛ فإننا نقف هنا في هذا البحث مع مثال واحد من أمثلة الحضارة

الإسلامية؛ موضحين إسهامات المسلمين العرب في قيام هذه الحضارة الحديثة وفي صناعة هذا الرقي والتمدن، ومنهجنا في بحثنا هذا هو منهج موضوعي منصف؛ كما كان مذهب كبار المستشرقين الغربيين المُنصفين أمثال "مونتجمري وات" و"غوستاف لوبون" و"زيغريد هونكه" وغيرهم من العلماء الأفاضل الذين أعطوا كل ذي حق حقه، ونسبوا لكل مالك فكره وآراءه واجتهاداته وعطاياه في هذه الحياة.

وأيضا لنوضح التزييف الخفي الذي ينتهجه البعض في"الترويج" لكل شيء غربي من منطلق (سيادة الغالب) ولأجل الحقيقة التاريخية التي يُحاولون طمسها؛ والتي تقرر بجلاء واضح حسن الطبيعة الإسلامية في المجتمع والحياة ، كان هذا البحث موضحا التمدن الإسلامي الحضاري عندما حكم الدولة وقاد الناس؛ بل إنه أثّر في كل الأمم حتى دخله الناس أفواجا.

فلو صح أن يُقال على التطور المادي في الغرب حضارة ؛ فالحق أن الإسلام عندما حكم أوجد حضارة وصنع نهضة مادية عظيمة كبيرة،

وزاد عليها بـ" الرقي الأخلاقي " الذي تفقدة دول الغرب المتطورة اليوم ، والأندلس مثال على ذلك، ويشهد "ويليام ويلكوكس" مهندس الري الكبير في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين شهادة حق حين يقول: "إن عمل الخلفاء المسلمين في ري العراق في الأيام الماضية يشبه أعمال .الري في مصر والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا في هذا العصر".

فليس الاستحداث من المادة أشياء لم تستحدث من قبل ولم يعرف الناس مثلها.. ليس هذا دليلا على التقدم، إنما التقدم الحقيقي في تسخير هذه المصنوعات

والابتكارات في الارتقاء بالبشري، والاستعلاء بالقيمة الإنسانية، وخدمة الإنسان وتلبية احتياجاته ومستلزماته، فليست طائرة من أحدث الطائرات بها إمكانيات لم تكن في غيرها.. ليست هذه الطائرة علامة على الحضارة والتقدم إلا إذا خدمة الإنسان ولم تقتله!

فمن حارب الإنسان وأهان الإنسانية فهو في جاهلية وإن تقدم في المادية!

هذه الحقيقة التي لطالما لم تغب عن ذوي الخبرة والعلم، والتي لم تكن العصبية الغربية لتمنعها عن المُنصفين من أبنائها؛ حتى رأينا الابن الغربي الكبير مونتجموري وات يعترف بفضل الإسلام والمسلمين فيقول:

"إننا –معشر الأوروبيين– نأبى في عناد أن نُقرّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلاً تاما، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملاً بهذا الفضل، أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف" !

إنك قد تسمع قائل يقول: "الإسلام دين التخلف والرجعيّة – المسلمون أهل الجمود والتحجر" كثيرا ما نسمع أمثال هذه الكلمات في زماننا هذا!

بأي حق قيلت؟ وبأي منهج صيغت؟ لا نعلم!

قد يُقال: إن هذا قياسا على أوضاع المسلمين وظروفهم.. لكن هل وضع المسلمين الحالي وضع مقصود منهم؟

هل يمثل هذا الفساد التي تغرق فيه المجتمعات المسلمة؛ عقيدة المسلمين ودينهم؟

إن هذا الإفساد؛ ولا أقول الفساد، من الخطط الموضوعة لتدمير بلادنا العربية والإسلامية، من قبل أُناس درسوا تاريخ الإسلام وعلموا طبيعته المؤثرة في الحياة تأثيرا إيجابيًا عظيما.

هل "العلمانية" فعلاً هي الطريق للتحرر من الأغلال الدينية والاستبدادية كما يتغنى الغرب؟

وهل ترك الغرب المجال للعلمانية فعلاً كما يقولون ونبذ الدين ؟

وكيف ظهرت فكرة "العلمانية"، ومن أي وضع خرجت؟

وهل فعلاً النماذج الدينية المشرفة أمثال عمر بن الخطاب أمثلة لن تتكرر ؟

لقد كانت ولا تزال العقلية "التابعة" للغرب تنادي برفع كل شيء يتعلق بالدين؛ حتى لو أن له وجهة دينية من بعيدُ .. وهذا ما نتناوله في هذا البحث محاولين إظهار الحقيقة التاريخية للناس، وبيان أن الإسلام الذي يُحاربونه في مشارق الأرض ومغاربها قادر (كما كان من قبل)، وسيظل؛ على القيادة العادلة وصياغة الحياة كلها وفق منهج العدالة المطلقة التي لا تُحابي أحدا على أحد مهما كان دينه أو عرقه أو نسبه.

أوروبا في القرون الوسطى

كانت أوروبا صاحبة الرفاهية والتقدم حديثًا تعج بالفوضى والفساد والانحلال في عصور ظلامها الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي)، كل هذا الفساد والتخلف كان بسبب رجال الدين الذين تحكّموا في الحياة فأفسدوها بأفكارهم البائسة ومنهجهم الغير الصالح، حتى كانت الكنيسة الغربية صاحبة السوط الكبير الذي لطالما رُفع على العلماء والمُبدعين وأصحاب الآراء المخالفة للكنيسة من قبل رجال الدين المتعصبون.

وتتمثل مظاهر سيطرة الكنيسة على التعليم في عصور ظلامها الوسطى في الأتي:

١. احتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس

٢. من لا يخضع للكنيسة فهو ملعون

٣. فرضت الكنيسة سيطرتها على الجامعات الأوروبية، لكي لا يخرج فكر ينتقدها ويقف أمامها، وبذلك استبدت الأفكار والمؤسسات.

محاكم التفتيش:

وقفت الكنيسة بالمرصاد لكل فكر مخالف لها واضطهدت المخالفين وقمعتهم ونكلت بهم أشد أنواع التنكيل ، وأقامت محاكم التفتيش التي بها كل أساليب القهر والتعذيب ، وكانت هذه المحاكم تطارد المخالفين إلى حد إحراقهم أحياء.

فعندما سقطت غرناطة في أسبانيا سنة ٨٩٧هـ ، وسقطت الخلافة الإسلامية في الأندلس. وفي هذه الفترة قامت "محاكم التفتيش" التي ارتكبت أعمالًا وحشية لتطهير اسبانيا من المسلمين وآثارهم ، وإبادة تراثهم الذي ازدهر طوال ثمانية قرون من الزمان.

وهاجر كثير من مسلمي الأندلس بعد سقوط دولة المسلمين؛ فرارًا من اضطهاد النصارى، وعادت اسبانيا إلى دينها المسيحي القديم، أما ما بقى من المسلمين هناك فقد أجبر على التنصير أو الرحيل.

وأحرقت جميع الكتب الإسلاميّة في الدين والشريعة من قبل النصارى آنذاك. وقد مورست تجاه المسلمين الباقين في تلك الفترة في أسبانيا أشد أنواع التعذيب، وكان المسلمين الذين بقوا هنالك قد أجبروا بالقوة على اعتناق النصرانية؛ لكن بالرغم من دخولهم النصرانية إلا أنهم كانوا يتعلقون بالإسلام سرًا، وكثيرًا منهم يؤدي شعائره خفية خوفًا من تنكيل الكنيسة ورجال الدين النصراني إن علموا ببقائه على دينه.

وقد حارب النصارى اللغة العربية وفرضوا على من يعيش في الأندلس عدم التحدث بها، وتم حظرها هناك.

واستمرت "محاكم التفتيش" في محاربة هؤلاء المسلمين طوال قرن من الزمان، مما يدل على آثار الإسلام الراسخة في نفوس الناس رغم المحن والاضطهاد، وكان رجلًا

من الأسبان يدعي "بدية" توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بعد ما يزيد على ٣٠٠ عام من قيام "محاكم التفتيش".

وفي هذه الفترة (التي كانت فيها محاكم التفتيش) كان المتهم يمثل أمام المحكمة لإخضاعه للاختبار ، وكان هذا الاختبار عبارة عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير للتأكد أنه غير متمسك بالإسلام.

وهذا الامتحان لم يكن الأخير ؛ بل كان يحبس بعدها في الزنزانة في سجن سري دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه.. وكانت هذه الزنزانة مكان من أسوء الأماكن على الإطلاق، فقد كانت مظلمة ومليئة بالأفاعي والحشرات.. وكان المتهم يبقى في هذا المكان أشهر طويلة فإن مات فتعتبر المحكمة أن الله رحمه ، وإن عاش فما عليه إلا أنه يقاوم الموت!

وكانوا يجبرون المتهم على الاعتراف، فإن اعترف أو لم يعترف لا بد وأن يتعرض للتعذيب!

ويشتمل التعذيب على كل ما يخطر بالبال من أساليب وما لا يخطر، منها على سبيل أنها تبدأ بمنع الطعام والشراب ثم الجلد ونزع الأظافر

والكي بالحديد المحمي ونزع الشعر والتعليق من الأصابع والإخصاء.. وكانوا يتعرضون للحرق وكان هذا الحرق جماعي.

وقد كانت محاربة "الهرطقة" – التي تُعد الانحراف ؛ولو البسيط، عن العقائد المسيحية– في جميع أنحاء العالم المسيحي بكل وسائل التعذيب والتنكيل.

لماذا تعصبت الكنيسة ضد المخالفين؟

لأن بنية العقائد المسيحية قد أُخذت من فلسفات وثنية متعارضة وكان هذا سببا في تعقيدها وتناقضها. وبالاعتقاد الحتمي الذي لا يقبل المناقشة والجدل سار رجال الدين المسيحي يؤمنون بعقائد لا تقبل الفهم، كما وقر في نفوسهم أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم!

مراحل محاولات تحرر العقل الأوروبي من قيود الكنيسة في عصر النهضة:

بعدما أيقن العقل الأوروبي بمآل حالته المزرية بدأ يثور على الوضع في أوروبا في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي، وسميت هذه الفترة بعصر النهضة الأوروبي، حتى القرن السابع عشر الميلادي الذي كان بداية للعصور الأوروبية الحديثة، وتمثلت هذه الثورة في مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى/ نقد رجال الكنيسة وإظهار مساوئهم وعيوبهم، وعدم الاقتناع برجال الكنيسة.

المرحلة الثانية/ نقد الدين المسيحي نفسه، وتعظيم شأن العلم، وإنشاء الجمعيات العلمية المستقلة عن رجال الدين المسيحي ، وتشجيع البحث العلمي القائم على المناهج التجريبية.

وإذا أردنا أن نقارن بين هاتين الفترتين في عصور أوروبا الوسطى (فترة عصر النهضة ، وما قبل عصر النهضة) نلمح في الجمهور المسيحي السمات الأتية:

في العصور الوسطى ما قبل عصر النهضة	في عصر النهضة
الخضوع الكامل للكنيسة واتباعها في كل شيء	الثقة بالعقل ورد القيم له والبعد عن الدين
تحقير الإنسان واعتباره خطيئة في هذه الحياة	إحياء الروح القديم (المذهب الإنساني)
الحط من شأن العقل والفكر	تعلم اللغة اليونانية والفلسفة المستقلة عن الدين
هناك أسرار لا يستطيع العقل إدراكها	سيادة التوعية الفردية واحتكار العقل الجمعي
	معاداة الفلسفة للدين ونبذه ونقضه
	تقدم التجارة
	الكشوف الجغرافية أثبتت كذب الكنيسة
	المغالاة في الفنون الطبيعية
	تقدم الصناعة
	ظهور المنهج التجريبي عند روجر بيكون والذي استمده من المسلمين

أسباب نقد الكنيسة في العصور الوسطى:

١. تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والانحطاط في الكنيسة، ومن مظاهر هذا الانحلال والانحطاط أن غالبية رجال الدين المسيحي كانوا مدمني الخمر، ويرتكبون الزنا، ولديهم المال الكثير، ويسعون وراء المتع ويهملون أعمالهم، وكانوا يشترون المناصب بالمال.. وقد وصلت حالة البابوية في القرنين العاشر والحادي عشر إلى أحط دركات الانحطاط.

٢. فرض الضرائب على رعايا الكنيسة، وجمع الأموال بالطرق الغير مشروعة، فقد استولت الكنيسة في فرنسا وألمانيا على ما يتراوح بين ثلث ونصف أملاك الدولة، كما أنشئوا ما يسمى بـ "صكوك الغفران" وهو مبلغ يدفع للكنيسة مقابل "صك" يصدر عن الله _بحد زعمهم_ يعطيه القس للمذنب مقابل المال وبالتالي فقد حصل المذنب على المغفرة وكذلك على موضع في الجنة!

٣. مخالفة العقيدة المسيحية للعقل. ويتمثل هذا التضاد مع العقل والفكر الإنساني في أسرار الكنيسة التي تمثل حجرًا على العقل والفكر من النقاش والفهم لها، وها هي مع ما يعتمدون عليه من كتابهم المقدس في تشريع هذه الأسرار:

- سر المعمودية: يولد الانسان ولادة ثانية من فوق بالماء والروح "من أمن واعتمد خلص" (مر١٦: ١٦).

- سر الميرون: تنال به سُكن الروح القدس. ومنح الروح القدس لازم للجميع.

- سر الافخارستيا: به يأكل المؤمن جسد الرب ودمه (يو٦: ٥٣).

- سر التوبة والاعتراف: به ينال الخاطئ التائب الغفران ولازم للكل فليس أحد بلا خطية.

- سر مسحة المرضى: لينال المريض الشفاء

- سر الكهنوت: ينال الخادم سلطان ممارسة الاسرار.

- سر الزيجة: يتحد الرجل والمرآة اتحاداً مقدساً.

وإذا جئنا إلى سر من هذه الأسرار وتأملنا فيه ندرك ببداهة كم الفساد الديني الذي وقع فيه هؤلاء القساوسة ورجال الدين، ففي المسيحية، أو بالأحرى في الكنيسة، قد عرف الغفران للذنوب باسم آخر غير المتعارف عليه بين المؤمنون، حتى غدا في عقيدة الكنيسة "سر" من أسرارها التي لا يمكن للعقل أن يدرك حقيقته أو يفهم مخزاه!

هذا السر الذي هو أحد أسرار الكنيسة السبعة، يعرف بـ (الغفران أو التوبة أو الاعتراف) ، ويأتي المُذنب من أتباع الكنيسة إلى القس الذي يكون بيده تطهير العاصي من خطاياه، وهذا القس يعتبر نفسه وكيلًا عن الله في توزيع الجنة والنار فإذا جاء المذنب واعترف أمام القس بذنوبه واشترى منه الغفران، والغفران عبارة عن "صك" يصدر عن الله عز وجل في زعمهم ولكنه بيد القس، يُعطيه المذنب مقابل مبلغ من المال..

وبالتالي فقد حصل المذنب على المغفرة وكذلك قد حصل على موضع في الجنة!

لكن هل هذه تعاليم دين الله عز وجل؟ هل هي تعاليم المسيح فعلًا لأتباعه ؟

إن المسيح نفسه عندما قال لأحدهم: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». (متى ٢/٩) ، لم يكن يقصد أنه أساس الشفاء، المسيح عليه السلام قال هذا بعدما رأى إيمانه، فإيمانه هو من غفر له كما هو الحال مع المرأة التي قال لها المسيح في متى ٢٢/٩: ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ.

فكل من يؤمن بالرسول ومن أرسله يُغفر له خطاياه؛ فهذا وعد الله لمن آمن وصدّق.

ثم إن شفاء المرأة من المعجزات التي أيده الله بها، والمسيح لا يستطيعها وحده كما قال: أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا. (يوحنا ٣٠/٥).

فكيف يترفع سيدنا المسيح عن هذه الخصوصية الإلهية، ولا يترفع أتباعه من القساوسة ؟!

وليست الأسرار وحدها هي دافع الرفض؛ بل هناك عقائد كنسية أصيلة كانت بمثابة الدافع الأول لرفضها زمنها: مسألة الصلب والفداء، والتثليث.

٤. عدم تقبل آراء المخالفين لرجال الكنيسة وتعصبهم. اعتبرت الكنيسة "علم الكيمياء" فنًا شيطانيًا خبيثًا، وقد أدان البابا المشتغلين بها عام١٣١٧م ، وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢م ، لمجرد نزوعه للبحث العلمي.

وما حدث لجاليليو الفلكي الذي خالفت آراءه النظرية الكنسية المقررة بأن الأرض هي مركز الكون وكل الكواكب والنجوم تدور حولها، لقد حبس في بيته حتى موته لأنه خالف الكنيسة في رأيها!

٥. فرض الضرائب ، وثراء رجال الدين. يقول جون لوريمر في تاريخ الكنيسة جـ٤: "هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية ، ولكن التهمة الأكثر انتشاراً كانت الإستغلال المالي، ضج الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي بأن الكنيسة عاشت للمال.

ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عَصروا الكهنة الذين هم بدورهم عَصروا الشعب.

يبدو أنهم في كل يوم اخترعوا طرقاً جديدة لتنمية دخول الكنيسة. فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف. كانوا يطالبون بعشر دخل الكاهن ، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر. الضرائب كانت تفرض سنوياً على الملوك وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد، حينئذ تفرض لذلك ضريبة إضافية. يقدرون أن الكنيسة في أسبانيا وفرنسا استولت على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف أملاك الدولة. وفي إنجلترا تلقت الكنيسة وصرفت حوالي ٢٥% من الدخل القومي.

في هذه الفترة من التاريخ لم يعد الناس يفكرون في الكنيسة على أنها مؤسسة للخدمة أو الإلهام لكن بالأحرى كملكية خاصة بكبار رجال الإكليروس، أوجدت لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية" .

من الحركات التي نقدت الكنيسة:

١. حركة الكاثاريون cathares: وهي أول حركة ضد الكنيسة، وقد نادت هذه الحركة بالعودة إلى العقائد المسيحية الأولى التي ترك عليها المسيح أتباعه .

لكن قد دخل هذه الحركة بعض الأفكار "المانوية" حتى ارتدوا الثياب السوداء وسموا أنفسهم بالكمّل ، وكانوا يقسمون على الزهد في الآباء الأولاد والزوجات وأن يهبوا أنفسهم للإنجيل، ولهذا سموا بـ "الكاثاريون" أي الأطهار.

كان تعارض الكاثاريون للكنيسة بسبب سلوك رجال الدين والعقائد الكنسية المخالفة للعقل كالعشاء الرباني والقداس والتثليث، واعتقدوا أن المسيح ليس ابن الله.

وقد تم تجنيد جيش مؤلف من نصف مليون رجل لقتال الكثاريين !

٢. حركة الولدانيون vaudois: وتنسب لمؤسسها بطرس والدوا ، وقد وقفت الكنيسة أمامها أيضًا بالتنكيل والقمع حتى أحرقت الآلاف من أتباع بطرس والدوا .

ومن أوئل من نادوا بتحرير العقل آنذاك هم : أنسلم، البرتس، توماس، وأشهرهم بطرس أبيلارد.

وألف أبيلارد كتاب بعنوان "التوحيد والتثليث" أنتصر فيه لعقيدة التوحيد ، كما رفض أن يكون في الدين أسرار.. وقد سجن ابيلارد حتى مات!

أسباب الصراع بين العقل والدين المسيحي في القرن الثاني عشر:

١. تحريف الدين المسيحي واحتواءه على تناقضات لا يفهمها العقل

٢. اعتقاد الثائرون بأن الدين المنزل من الله لا يختلف ولا يتناقض مع العقول بل يتوائم معها.

وقد يقول قائل: إن الأديان كلها بما فيها الإسلام لا تخلوا من مغيبات وحقائق لا يستطيع العقل إدراكها؟

ويمكن الرد على هذا بأن هناك فرق بين ما لا يستطيع العقل الحكم عليه كالتثليث، وبين عدم الإدراك في أشياء وهذا ما في الإسلام كعدم إدراك الذات الخالقة "الله".

٣. هيمنة وسيطرت رجال الكنيسة على مقاليد الأمور، وتعصبهم وعدم مسامحتهم للمخالفين لهم في الرأي، بل كانوا يقتلون ويلعنون من خالفهم.

٤. استبداد الكنيسة بفهم الكتاب المقدس، فقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتاب المقدس، واستبدت بتفسيرها باقي الناس وكل من عارضها في كلمة كان له الويل الشديد، ولذلك وقف "برنارد" موقف العداء من "أبيلارد" الذي نادى بأنه لا أسرار في الدين.

وبناءً على هذه الثورة في عصر النهضة الأوروبي كانت النتائج سلبية بشكل كبير فبينما تحرر الفكر الأوروبي من سيطرة الكنيسة إلا أنه قد توجه إلى التفكير حول الثورة على الدين نفسه، وكان من نتائج هذه الثورة واعتناق المذهب الفردي المستقل في كل شيء ظهور الانحراف الأخلاقي بشكل كبير ، وقد تم الخوض في الميادين العلمية التي حظرتها الكنيسة على الناس محاولين لإقصاء أي فكرة تخدم إلى الدين أو حتى تشير إليه!

الإصلاح الديني (البروتستانتي):

هبَّ جماعة من المسيحيين للخروج على الكنيسة الكاثوليكية ، والتنديد بعيوبها ، والتشهير بممارساتها، ومهد الطريق لهذه الحركة الإصلاحية (البروتستانت) وجود حركات أخرى نقديّة قبلها تجاه الكنيسة.

وقد قامت نتيجة لتدهور رجال الدين وفسادهم، ولما يوجد في المسيحية من عقائد يأباها العقل كالعشاء الرباني وصكوك الغفران وغيرهما.

وكان من أبرز قادة الإصلاح البروتستانتي "مارتن لوثر" و"أولريخ زوينجلي" و"جون كالفن" .

لكن لم تكن هذه الحركة الإصلاحية معالجة للأسباب الحقيقية المتمثلة في العقائد المسيحية التي هي مثار النقد الأساسي مثل عقيدة التثليث والتجسيد والخلاص..

فكانت هذه الحركة الإصلاحية بمثابة إصلاح للكنيسة لا إصلاحا للمسيحية!

ثورة العقل الأوروبي على الدين المسيحي:

بعد أن ثارت الحركات على الكنيسة، قامت الثورة على الدين المسيحي نفسه، مما أدى إلى وجود الإلحاد والعلمانية، وهذه الثورة تتمثل في صورتين هما:

١. بدأ العقل الأوروبي ينبذ الكنيسة والدين ورأوا أن الكنيسة تقف عائق أمام العلم وسدًا أمام الفكر والعقل!

٢. بناء على الخضوع الموجود للكنيسة ، قامت الثورة بنبذ الدين حتى ترتب على ذلك عدة نتائج وهي:

١. تحرر الفكر الأوروبي من سيادة الكنيسة

٢. كان السؤال المطروح حول الثورة على الدين وليس على الكنيسة

٣. الانحلال الأخلاقي

وبهذا كانت هذه الثورة خروجًا على القيم الإنسانية كلها وليس الدين المسيحي فقط!

نشأة العلمانيّة

ولجمود رجال الدين الكنسي وما كان بهم من فساد وانحلال.. ظهرت العلمانيّة لأول مرة، ونشأة نتيجة لهذه الظروف التي مرت بها أوروبا في عصور ظلامها، وأتبعها بعد ذلك ظهور الإلحاد في ثوب التحرر والحرية!

وهذه التيارات الهدامة تهدف إلى صرف الناس عن الدين والتوجه إلى الدنيا وحدها، والاهتمام بها.

لكن هذه المذاهب الهدامة حديثًا لا تصلح للمجتمعات العربيّة المسلمة، وذلك لأسباب، منها:

١. في الإسلام لا يوجد عقائد تناقض العلم ، ولا يوجد كهانة، ولا يوجد فيه جمود واحتكار..

٢. في الإسلام حث على أعلى مكارم الأخلاق حتى لقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم الغرض العام من مبعثِه فقال: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" .

بل جعل من حسن الخُلق طريقًا موصل لحب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا".

كما يوجد حث على العلم والتعلم والتفوق، وأكد الإسلام على أن التخلف جريمة، ولذلك كان الرُقي واجب ديني إسلامي ، ولا يوجد في الإسلام ما يناقض أو يخالف العقل..

ونبي الإسلام كان نبيًا وحاكمًا ورئيس للدولة وقاضيًا.. فالإسلام بطبيعته شامل كامل جاء للحياة كلها بجميع جوانبها.

فالأسباب التي قامت عليه العلمانية ونشأة كانت أسبابًا أوروبيّة خالصة، فلماذا نقيس الإسلام وعقائده على عقيدة قد حرفتها الكنيسة ورجالها؟!

حرص المستشرقين على علمنة الدولة:

يظهر هذا الحرص جليًا من خلال أفكارهم وكتبهم، ففي كتاب "إلى أين يتجه الإسلام" الذي حرره "هاملتون جيب" نجد هذه الأفكار ظاهرة جلية، حيث يقرر أن الإسلام حضارة كاملة وليس مجموعة أحكام جزئية..

كما قرر أيضًا أن تأثير الحضارة الغربيّة أصبح قويًا على واقع المسلمين حيث تفتتت الوحدة الفكرية بين المسلمين، وهذا التأثير لا بد له من إعلام وصحافة وهيئات تُعلم وتنشر الأفكار التي تؤثر في نفوس المسلمين، كما أنه لا نكتفي بالمظاهر والأشكال بل لا بد من التطرق إلى الأفكار، وكذلك السيطرة على الحياة الإجتماعية، والمؤسسات الموجهة للناس والسيطرة على انتشار اللغة العربيّة والحد منها، والعمل على نفوذ الثقافة الغربية واللغة الغربية في العالم الإسلامي.

هذه هي الحريّة التي يسعى لها الغربيين حديثًا؛ حريّة السيطرة على المسلمين!

لقد كان ولا زال المستشرقون في كامل اهتمامهم بإنشاء حركة إصلاح في الإسلام وتشجيعها على غرار حركة الإصلاح البروتستانتي ، وذلك من خلال الآتي:

١. أنه لا يجب على المسلمين أن ينظروا إلى كتاب الله على أنه كلامه حرفيًا.

٢. أن ما لا ينسب إلى الله حرفيًا في القرآن، نحن مخيرون في قبوله ورده، كما هو الحال في الأحاديث النبوية حاليًا.

٣. لا بد وأن تقوم حركة تهتم بنقد القرآن الكريم وتشكيك المسلمين فيه.

٤. كل ما تعارض مع الحضارة الغربيّة نحذفه من الإسلام.

٥. النظر إلى الإسلام على أنه دين ولا دخل له بالدولة.

والمشكلة الأساسية التي يرونها عائق أمام مدهم الأوروبي الحديث هي أن الإسلام دين له تأثير على أتباعه.

الآن نتساءل: كيف أثّر الإسلام على الغرب لكي يندفعوا نحو محاربته الشديدة هكذا؟

يمكننا أن نتساءل : ما الذي دفع الغرب قديمًا لدراسة الإسلام؟

يُجيب التاريخ على هذا التساؤل بأن:

١. انتصارات المسلمين الكبيرة، وعدم اقتصار النفوذ الإسلامي على الفتح بالقوة العسكري

٢. بروز الإسلام كقوة دينية فكريّة ثقافية كبيرة (الدين الشامل لجميع نواحي الحياة) .

هذين السببين مثلا تحدي كبير للغرب ، فانتصارات المسلمين قديمًا دفعتهم لدراسة الإسلام للتعرف على سر قوة المسلمين ، ولم تقتصر سيطرة المسلمين على الفتح ؛ بل أثّر المسلمون في المجتمع بلغتهم وصارت هي لغة الثقافة والفكر والحضارة دون إكراه أو اضطهاد، حتى أن "الفارو" أسقف قرطبة اشتكى من كون الشباب المسيحي

يأخذون من الأدب العربي أكثر مما يأخذون من اللاتينية ، ويقرؤون الأشعار والحكايات العربية، ويدرسون مؤلفات العرب.

– وكان للمسيحيين الشرقيين دور مهم في التعريف على الإسلام، فأول وسيلة وأخطرها كانت بيد "يوحنا الدمشقي" .

فمن هو يوحنا؟

إنه منصور ابن سرجون، من دمشق، وكان والده يعمل في قصر الخليفة؛ وكذلك كان جده رئيسًا لديوان المالية. وشغل يوحنا الوظيفة نفسها وكان صديقًا مقربًا للخليفة هشام ابن عبد الملك.. لكنه ترك المهنة وأصبح راهبًا في فلسطين، وسمى نفسه يوحنا الدمشقي.

ألف يوحنا كتابًا سماه "هرطقة الاسماعيليين" وكان يشارك في مناظرات كانت تجري في قصر الخليفة ، وكان يعرف القرآن بشكل معهود، وقد زعم أن في القرآن آثار مسيحية ، وقد كان معظمًا ومقدسًا عند الكنيسة حتى أطلق عليه "يوحنا ينبوع الذهب" !

ومن أفكاره أنه قال: إن محمد تعلم الرهب من بحيرا ، وتلقى القرآن وهو نائم..

ولم يثبت أن كلمة واحدة نزلت على النبي محمد وهو نائم!

ثم يقول: إن محمد ألف كتب منها (كتاب المرأة والناقة)، وأخذ يعدد سور القرآن.

وسمى كل سورة كتابًا، وهذا جهل منه بالقرآن لأنه لا يوجد سورة اسمها الناقة أو المرأة ، كما ادعى أن محمد وقع في نفسه صنع دين جديد!

ويرد على هذا الكذب "طومس كارليل" فيقول: حب أن يؤلف دينًا في حضرة قافلة في جلسة خاطفة.. لا يقول بهذا عقل!"

والبطريك المسيحي "جورج خضر قد ألقى محاضرة في مصر قال فيها: إن يوحنا لم يكن مؤهلًا للكتابة عن الإسلام".

نعم، لقد كان البيزنطيون أداة التشويه الرئيسية التي تعرف الغربيين على الإسلام، وقد ألف أحدهم كتاب سماه "حياة النبي" هذا الكتاب مليء بالأكاذيب والأباطيل.

إن الثقافة "العربية الإسلامية" في الأندلس وصقلية دورًا مهمًا في تعريف الغربيين بالإسلام، وذلك لاستقرارها قرون عديدة في أوروبا حتى تغلغلت جذورها هناك .

كما أن صقليّة كان لها دور كبير في التعريف بالإسلام ، فكانت الثقافة العربية مزدهرة، ووضع على النقود عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، وكان حاكمها يرتدي ثياب المسلمين، وجعلت العربية لغة الثقافة، ويقول أحد المستشرقين "إن ملوك صقلية كانوا عربًا في ثقافتهم".

التأثير الإسلامي على الغرب

(المستشرق مونتجمري وات)

"إننا –معشر الأوروبيين– نأبى في عناد أن نُقِرَّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلاً تامًّا، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملاً بهذا الفضل، أمَّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف".

مونتجمري وات

في كتاب "فضل الإسلام على الحضارة الغربية" اعترف المستشرق الغربي "مونتجموري وات" بتأثير المسلمين على الأوروبيين في مجالات كثيرة، وكان ذلك من خلال الأتي:

١. **التجارة والملاحة البحريّة**. فقد جلب العرب بخبرتهم السفن وقاموا بتجهيزها.

وهيمنوا على التجارة، واخترعوا السفينة ذات الشراع؛ وتميزت هذه السفينة عن غيرها من السفن بقدرتها على الإبحار عكس اتجاه الرياح، كما اخترع العرب البوصلة وتم بعدها إدخال تحسينات عليها.

كما وضع العرب الخرائط البحريّة التي كانت عدة مهمة للملاحين.. إن العرب في هذا المجال كانوا أصحاب الفضل في اتساع معارف الأوروبيين الجغرافية.

٢. **المحاصيل الزراعية والمعادن**. لم يكتفي العرب في أسبانيا بالزراعات القديمة؛ بل أدخلوا زراعات جديدة، وفي مجال الزراعة كانت للمفردات العربية تأثير على المفردات الغربية، ومن تلك المفردات أو الكلمات: (الساقية ، القنطرة).

٣. **فنون الحياة الرغدة**. في أسبانيا الإسلامية نشأت صناعة المنسوجات الفخمة، وما زالت أسبانيا محتفظة على تلك المنسوجات الفخمة، وصناعة الخزف ، والكريستال، وقام عمال العرب المسلمين المهرة بصناعة الأدوات الدقيقة من الحديد، وأظهروا فن تجليد الكتب، والصناعات المزركشة، وبعض المصطلحات التي دخلت اللغة الأوروبية كـ(العريف، القبة، الضبة) كانت مصطلحات عربية خالصة.

ومع أن زيغريد هونكه قد وصفت العرب المسلمون بأبناء الصحراء إلا أنها لم تجانب الإنصاف في حق المسلمين العرب إذ تقول "إن هذه القفزة السريعة المدهشة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللاشيء، لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر لفريدة من نوعها، تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها".

وقد استجلب من الشرق صناع عرب للعمل في أسبانيا. والموسيقي "زرياب" الذي أقام في قرطبة من عام ٨٢٢ حتى وفاته سنة ٨٥٧،

وقد كان في شبابه يغني ويعزف في بغداد لهارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) وبعد أن قر عزمه على الرحيل من بغداد أغراه بالقدوم إلى قرطبة حكام الدولة الأموية بالأندلس الذين أغدقوا عليه هداياهم الفاخرة، ولم يقتصر دور "زرياب" على رفع مستوى العزف والغناء ، وإنما أضحى كذلك حكمًا في مجال الأزياء والذوق، وكان

يُعد مأكولات مختلفة ، وقد ابتدع تغيير الملابس في كل فصل من فصول السنة، وبعض الآلات كـ (العود، الرباب، الجيتار) أنشأها العرب وأخذها عنهم الأوروبيين.

واهتم العرب بالكتب والورق اهتمامًا بليغًا، وأسس "يحي البرمكي" وزير هارون الرشيد أول مصنع ورق بعد الصين في بغداد. وقد استخدم روجر الثاني ملك صقلية الورق في كتابة وثيقة له وكان ذلك بعد ما صنع المسلمون الورق بما يقارب أربع قرون، ولم تؤسس مصانع الورق في إيطاليا وألمانيا حتى القرن الرابع عشر.

وهذا ما امتدحت به زيغرند هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب: " لقد فتحت صناعة العرب للورق افاقا جديدة لم يعد فيها الورق مختصا بطبقة معينه بل غدا مشاعا ودعوه للعقول أن تعمل وتفكر" . وكان للإرادة المحلية والنشاط التجاري صدى لكلماتهم على اللغة الأسبانية مثل (العمدة، الديوان، المخزن) .

٤. **إنجازات العرب في ميادين العلم والفلسفة**. كان هناك تحيّز ضد العرب من بعض الباحثين الأوروبيين مثل: كارادوفو، الذي قلل من الجهود العربية والإسلامية في الارتقاء المعرفي آنذاك.

لكن العرب قد حققوا انجازات في مجال الهندسة والجبر والحسابات.

٥. في مجال الرياضة والفلك. أعتبر "الخوارزمي" العالم المسلم منبع في علم الرياضة والفلك؛ حيث أن أحد كتبه يعتبر أساس علم الجبر، واخترع بيان الجذر التربيعي.

أما في مجال الفلك فقد اشتهر "جابر بن الأفلح" ، و"البطروجي" ، وكان هناك عام يهودي قام بترجمة الكتب العربية إلى العبرية، ولعب هذا دورًا مهمًا في نقل التراث الإسلامي إلى الغرب وتعرفهم عليه.

يقول غوستاف لوبون في حضارة العرب: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهما مدينان لهم في تمدنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية، فكانواُ ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون، فقد ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون. فعلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة"

٦. **الطب**. قام المسلمون ببناء المستشفيات، وكان أبو بكر الرازي ممن له كتب عظيمة في مجال الطب ، وأعظمها كتابه "الحاوي" الذي كان بمثابة الموسوعة للمعارف الطبية .

وابن سينا له كتاب اسمه "القاموس في الطب". وابن رشد، وابن زهر.. كلهم كان لهم إسهامات عظيمة في مجال الطب العلاج.

قد كان الأطباء المسلون وحدهم في أوروبا هم المهرة في الطب حيث عالج أحد المسلمين المرضى بكل مهارة واحترافية، بينما قتل بعض المرضى عالم إفرنجي!

ومن المرجح أن تكون خبرات الصليبيين هي من أسست المستشفيات ، ولكن هذه المستشفيات كانت أدنى من المستشفيات العربيّة.

وظلت أوروبا في القرن الخامس والسادس عشر على اعتماد الطب العربي؛ حيث كان أوائل الكتب المطبوعة تحتوي على جزء من كتاب الرازي المسلم.

تقول زيغريد هونكه " اتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر، فيقابلوا ما قد تلقنوه نظريا بما يشاهدونه بأم أعينهم حقا!

وهكذا تخرجت طبقة من الاطباء الذين لم يشهد لهم العالم آنذاك مثيلا إلا في عصرنا الحديث".

أما تبني الأرقام العربيّة فلم يتم إلا في القرن الثالث عشر، وما قبل ذلك فقد كانت أوروبا تستخدم أرقام رومانية صعبة في جميع المجالات. كما يوجد كلمات فرنسية وألمانية وانجليزية مشتقة من الكلمة العربية "صفر".

ومن الكتب التي رصدت أثر الثقافة الإسلامية على الغرب ما يلي:

١. **فضل الإسلام على الحضارة الغربيّة لمونتجمري وات** ، حيث قال فيه عن فضل المسلمين على الغرب: "نحن الأوروبيين نجهل الفضل الذي تدين به ثقافتنا للإسلام، وفي بعض الأحيان، نستخف بمدى التأثير الإسلامي في تراثنا وأهميته، وفي أحيان أخرى نتجاهله كليا، ولبناء علاقات جيدة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بهذا الفضل كاملا، فإنكاره ليس إلا كبرياء زائف".

٢. **شمس العرب تسطع على الغرب، للمؤلفة الغربية زيغريد هونكه** التي ألفته إنصافًا لفضل العرب على الحضارة الغربية حديثًا، فقد قالت:

"صممت على كتابة هذا المؤلف، وأردت أن أكرم العبقرية العربية وأتيح لمواطنيّ فرصة العودة إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب ديني أعمى وجهل أحمق".

٣. **حضارة العرب، للمستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون"** الذي أقر بفضل العرب المسلمون في كتابه الذي قال فيه ممتدحًا المسلمين: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الإبداع الفني".

٤. **الأبطال، لتوماس كارليل**، الذي اعترف فيه بهذه الحقيقة التاريخية إذ يقول: " لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن مُحَمَّداً خَداع مُزور، وآن لنا أن نُحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنيرة مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس.

إن الله أخرج العرب بالإسلام من الظُلمات إلى النور، وأحيا به من العرب أمة هامدة..، فأرسل الله لهم نبياً وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهور مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة".

٥. **كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟ ، لمارك غراهام**، ألفه محاولًا أن يبيّن بعض مساهمات المسلمين وتأثيرهم القوي على الغرب، قال في كتابه هذا: "على الرغم من أن معظم المشتغلين بفترة القرون الوسطى يعرفون المساهمات الإسلامية العظيمة في الحضارة الأوروبية، فإن القليل منهم قد كتب عن هذا الموضوع.

ومن الإنصاف أن أذكر أن بعض الباحثين من المستشرقين يحتقرون الإسلام وأتباعه من المسلمين لأسباب سياسية أو دينية، وهؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالحقد ينبغي أن يكونوا كالباحثين الجاديين؛ إلى أولئك الذين يفتحون أياديهم للترحيب بإخوانهم وأخوتهم من المسلمين".

عندما أدرك العقل الأوروبي هذه القوة الإسلامية وامتدادها في البلاد شرقًا وغربًا نهجوا على سبيل المحاربة للإسلام والمسلمين ليوقفوا هذا المد الإسلامي السمح، وفي حين أن أوروبا قد ثارت على دينها المنغلق وكنيستها المنحرفة؛ إلا أنهم اعتبروا بخبث دفين "دين الإسلام" كدينهم المنبوذ وساروا يقذفونه بالنقض كما فعلوا مع دينهم وكنيستهم تمامًا!

ناهيك عن الاختلافات بين الدين الإسلامي ودينهم المسيحي الذي لعبه فيه رجال دينهم ليوافقوه على هواهم، والتي يُدرك صداها كل مُنصف طالب للحقيقة إلا أنه حقًا يهمنا الآن أن نتساءل: هل استبعد المجتمع الأوروبي الحديث الدين المسيحي من عوامل التأثير فيه؟

هل تركت الكنيسة الدولة الغربية للعلمانية فعلًا ؟

تقول مجلة التايم في تعليقها على زيارة البابا جون بول الثاني لأمريكا عام ١٩٧٩م: "خلال عام واحد قفز الحبر الأعظم إلى بؤرة الضوء كزعيم متألق يتعطش العالم إليه".

وقالت نيوزويك: "إن الطريقة التي يثير بها الحماسة توحي وكأن الروح القدس قد ظهرت في أمريكا" .

وقد أعلن المذيع في التليفزيون الأمريكي : "إن من معجزات البابا أنه في سنة واحدة أسقط عيدي أمين وأحل حاكمًا مسيحيًا محله، وأسقط بوكاسا الحاكم الأفريقي المسيحي الذي تجرأ واعتنق الإسلام".

ويعلق على هذه الزيارة أحد شهودها وهو "أحمد الماوردي" وهو باكستاني علماني، كما جاء في تحقيق لمجلة الحوادث في ٢٧ /١٠ / ١٩٧٩م : "لا أصدق ما أراه، كنت أظن أنني أعيش في قلب الحضارة العلمانية والمادية وفق معقل الديمقراطية، حتى رأيتهم ينادون البابا بصاحب القداسة، حتى محمد الذي يعتقد المسلمون أنه نبي لا يوصف بالقداسة، يعتقد المسلمون أن "العصمة المطلقة لله وحده. إن الغرب ما زال يعيش الامبراطور الإله".

وفي بولندا في مطلع عام ١٩٧٩م كان الشعب البولندي يهتف: "نريد الله في مدارسنا، نريد الله في منازلنا، الله هو ربنا".

هكذا كانت الهتافات لاستقبال البابا عندهم، ولم جاء البابا وقام في خطبته ومواعظه الدينية للشعب قال: "إن المسيح لا يقبل أن يكون الإنسان أداة إنتاج فقط.. فعلى العامل ورب العمل والدولة والكنيسة نفسها أن يتذكروا أنه لا يمكن فصل المسيح عن عمل الإنسان".

وفي ألمانيا يقول الأمير شكيب أرسلان: "هل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوربا جرت دون تربية دينية؟ أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات: إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ ".

كما أن الكنائس في ألمانيا الاتحادية تعتبر أغنى كنائس العالم، والتعليم الديني إجباري في المدارس حتى سن الرابعة عشر، إذ يفرض على الطالب البروتستانتي تعلم اللوثريّة، وعلى الطالب الكاثوليكي تعلم الكاثوليكية.

وفي بريطانيا الملك هو رئيس الكنيسة في الوقت نفسه، يقول الصحفي أحمد بهاء الدين (الأهرام ١٢ / ٦ / ١٩٨٧) : "ملكة إنجلترا هي رئيسة الإنجليزية ولكنها لا تأمر وتوجه ناقلة رأي الكنيسة إلى البرلمان المنتخب من الشعب"

ويوضح الدكتور يوسف الحسن في رسالته للدكتوراه أن الدين يهيمن في أمريكا على أخطر القرارات السياسية الدولية، وقد كانت أخطر معتقدات هذه المسيحية الصهيونية تلك النبوءة التوراتية عن عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم وملكهم فيها.

إن أقوى الأحزاب الأوروبية هي الأحزاب المسيحية، وأن أقوى الحركات السياسية الأمريكية هي الحركة الأصولية المسيحية (هكذا!) ثم تحظر في بلادنا الأحزاب الدينية. هذا ما ذهب إليه الدكتور محمد عصفور الذي يتساءل: أليس غريبًا أن الصهيونية التي أفلحت في انتزاع إجماع العالم الغربي العلماني بإقامة إسرائيل على أساس ديني- هي أشد الدعوات العنصرية عداء لأية حركة سياسية ذات أساس ديني؟!

ويجيب الدكتور محمد عصفور على هذا ويقول: " على الرغم من أن مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة مبدأ دستوري مقرر بالتعديل الدستوري الأمريكي الأول؛ إلا أن للكنيسة والدين هيمنتهما على الحياة الأمريكية في شتى مناحيها.. وارتكازا على هذا الواقع: أعلنت الحركة المسيحية الأصولية عن أهدافها السياسية بصراحة شديدة، ولذلك قال قاداتها: "إن حركتهم تعني الاستيلاء على الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسساتها" .

وإلى الآن تجد عملات التعامل عندهم (الدولار) تحمل على ظهرها عبارة (In God We Trust) التي معناها "نحن نثق في الله"!

بينما العلمانيون العرب يصرخون إذا سمعوا شعارًا واحدًا من شعارات الإسلام!

هل العلمانية هي طريق تحرير العلم من الدين؟

زعم هذا الغرب وسار على دربهم جماعة من المسلمين العرب كطه حسين ومن يقف على آراءه وأفكاره، يقول طه حسين عن هذه النظرة التي يتبنونها في كتابه "من بعيد": "السبيل هو إقامة حكومة لا دينية تعتمد فكرة الوطنية، ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصف بها من منافع اقتصادية وسياسية خالصة قامت الآن في تكوين الدول وتدبير الشعوب"

هذا الفكر الذي هيمن على بعض مثقفينا حديثًا بدعوى التحرر والتمدن!

يمكننا أن نرد على هذه النظرة من خلال الأتي:

١. فساد القياس. فالكتاب المقدس المسيحي الذي قرر نظريات تخالف العلم والفكر.. لا يشبه ما قرره القرآن والإسلام من صفاء المضمون وخلوه من أي تناقض أو مخالفة للعقل السليم والعلم الصحيح.

٢. فساد القياس على الكتاب المقدس المسيحي من ناحية الإصلاح المجتمعي والاهتمام بالجوانب الحياتية (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدوليّة)، فالكتاب المقدس الذي قال "أَعْطُوا *مَا لِقَيْصَرَ* لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ" عندما اهتم بالجانب الروحي كثيرًا على حساب الجانب الدنيوي قد خالف القرآن الكريم والإسلام العظيم الذي يقرر على أتباعه أن تكون حياتهم كلها لله عز وجل، ولسان حالهم يقول ما وجههم إليه قرآنهم *قُلْ إِنَّ صَلَاتِي* وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

٣. القرآن يأمر اتباعه بالاهتمام الدنيوي في شتى المجالات والتخصصات إنطلاقًا من المنهج الإسلامي العام الذي وضع وأرسى القواعد الكليّة في حياة المسلم ليسير عليها حتى يلقى الله.

أخيرًا، الدين الإسلامي الذي خلا من كل عداء مع العلم والفكر ليس على غرار الكنيسة ولا رجال الدين المسيحي؛ بل إنه قد جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، بل إن الإسلام يرفع من شأن العالم "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ".

بل إن نبي الدين الإسلام أغلق الطريق على من يريدون أن يأتوا الإسلام بحجة رفضه للعلم حينما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقولته المدوية :"مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ في المَاءِ، وَفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ".

هل عمر بن الخطاب شخصية لن تتكرر؟

إن دعاة العلمانيّة قرروا أن الإنسان حين يحكم باسم الدين يقرر باجتهاده البشري ما يزعم أنه ناطق بلسان الوحي الإلهي، وأن تطبيق النظام الإسلامي سوف يخضع في النهاية لأهواء القائمين على التطبيق من البشر.

وهذه الرؤية خاطئة لعدة أمور :

أولًا: إن النص الإلهي إما أن يكون جليًا، كآية الجلد للزاني والزانية وآيات المواريث، فيهذا لا نزاع ولا جدال فيه بين المسلمين.

ثانيًا: وإما يكون النص الإلهي بحاجة إلى نوع من أنواع التفسير أو الاجتهاد، وهنا لا يأتي المرء بعقله ويجتهد إلا إذا أحكمته ضوابط علميّة ومعرفيّة أهمها أن يكون المجتهد من أهل العلم ذوي الخبرة اللغة وأسباب النزول وأحاديث النبي وكل علوم الشريعة المقررة.

ثالثًا: إن الزعم بأن الفهم البشري يحول بيننا وبين النص الإلهي زعم باطل، لأن قياسًا عليه فإنه يحول بيننا أيضًا وبين النصوص البشرية التي تحتاج إلى تفسير وبيان، وعندها فيستحيل علينا معرفة أفلاطون وأرسطو وكانت.. كما يستحيل علينا معرفة ما يقوله العلماني نفسه!

فهذا الحكم بالاستحالة خاطئ وغير صحيح.

رابعًا: إن الله عز وجل قد أخرج العرب من الظلمات التي كانوا فيها إلى النور والمعرفة والتقدم والحضارة بفضل المنهج القرآني الشامل لجميع نواحي الحياة، وفي ذلك يقول توماس كارليل: "لقد أخرج الله العرب بالإسلام، من الظلمات إلى النور، وأحيى به من العرب أمة هامدة، وأرضاها مدة. وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب، خاملة فقيرة، تجوب الفلاة، منذ بدءِ العالم، لا يُسمع لها صوتٌ، ولا تُحسُ منها حركة! فأرسل الله لهم نبيًا، بكلمة من لدنْهُ، ورسالة من قِبَلِه. فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقا، وَسِعَ نورُهُ الأنحاءَ، وعَمَّ ضوءُهُ الأرجاءَ، وعقد شعاعُهُ الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند

ورجل في الأندلس وأشرقت دراسة الإسلام حقبًا عديدة ودهورًا مديدة بنور الحق والهدى على نصف المعمورة".

خامسًا: إن عصر الخلفاء الراشدين كان هو المثل الأعلى في تطبيق الفكرة الإسلامية وهناك عصور أخرى كانت عادلة، وهناك عصور ازدهار وعصور انحطاط، ومن الجهل والسفه أن يزعم أحد أن بعد عصر الخلفاء الراشدين كان الحكم الإسلامي كله استبدادًا وظلامًا، فهناك فرق بين مبدأ التطبيق وسوء التطبيق، فالذي يكرر "إن عمر بن الخطاب شخصية لن تعود" قد أخطأ بمقياس العلم والمنطق، فالواجب علينا عندما نريد أن نكون موضوعيين أن نؤمن بموضوعية السبب والنتيجة، وأنه كلما حصل السبب كان لا بد من النتيجة أن تحصل، وليس في الأمر خصوصية لأحد. وهكذا فإنه حيث يتوفر السبب (وهو النظام الإسلامي) يظهر الإنسان المشابه لإنسان عصر الخلفاء الراشدين.

السؤال الآن هو: ما الذي يمكن أن يقدمه الإسلام لإنقاذ المستقبل؟

إن المنظومة التي جاء بها الإسلام ورسمها للحياة هي منظومة الربط بين الإيمان والعلم والعمل، إنها طبيعة الإسلام الشاملة لكل الحياة التي جعلت من المسلمين حين تمسكوا بها وطبقوها في حياتهم سادة الأرض.

وقد أدرك هذه الحقيقة روجيه جارودي حينما قال: "إن الإسلام برفضه فصل الثنائية المزعومة بين السياسة والإيمان يمكنه مساعدة الغرب على تجاوز أزمته ، كذلك فإنه يمكن للإسلام بربطه كل شيء بالله .. في الملكية . والسلطة والمعرفة إلخ ... أن يكون خميرة تحرر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الإنسان بحجة أطروحات مزيفة".

لكن لماذا كل هذا التقويض الذي خُطط للمسلمين من أكبر دول العالم التي لطالما تغنت بالحريات والمساواة؟

لقد وقفت أمريكا ومن خطا على نهجها ضد البلاد العربية جمعاء؛ فبين مستبد هنا ومغتصب هناك فإن أمريكا (أم العالم) ترعاه وتمده بالإمكانيات التي من خلالها يستمر في فساده للدول العربية والإسلامية.

لماذا لا يترك الإسلام والمسلون في الحياة ليصلحوا ما أفسدته العقول القاصرة، ويهذبوا ما شوهته المذاهب الهدامة في مسيرة الإنسان الكونية؟

يقول الشيخ القرضاوي عن أمة الإسلام حينما تركت وشأنها على نهجها القويم المتمثل في الإسلام العظيم: "كانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذي اعتنقته

والنظام الذي اتبعته ، هو سر قوتها، وينبوع سعادتها، وصانع حضارتها، ورافع ذكراها في العالمين، وأن كل نصر أحرزته، وكل خير أدركته إنما هو بسبب التمسك بعراه، وكل ذل ركبها إنما هو بسبب التفريط في هذا المبدأ والبُعد عن تعاليمه".

إن المسلمون كما صنعوا قديمًا بالإسلام الحضارات وأقاموا بفكرهم العالِ أعظم نهج مثالي يهفو إليه الفؤاد ، هم قادرون اليوم على صياغة العالم في أحسن تقويم؛ لكن لماذا لا يتركه دعاة التقدم وعلى رأسهم أمريكا ويدعون تأييد من يسومه وأهله سوء العذاب؟

إن الإسلام يقدم للإنسانية الرُقي في شتى المجالات الحياتية المختلفة؛ لكن هل من مُجيب؟

الخاتمة

إن الله عز وجل قد أنشأ أجيالًا بالإسلام، وأنار الدنيا بضوء نهجه في الحياة، وأعطى بالإسلام غير المسلمين ما لم يُعطَوه على مر الزمان والسنين، ولنا في ثنايا التاريخ خير دليل وأعظم برهان على رُقي الإسلام والمسلمين؛ حينما اندمجوا في كيان واحد مع غيرهم في كل مجال، فكما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم "قرآنًا يمشي على الأرض"، عادلًا، ناصرًا للمظلومين والمهضومين، وراعيًا للعلم والمتعلمين، وإمامًا للناس في الدنيا والدين.. كان المسلمون على خطاه في نفس المنوال أرقى الناس وأحضرهم وأعلمهم، عندما تجسدت تعاليم الإسلام في شتى حياتهم وتوجهاتهم ، هذه التعاليم التي تُحارب اليوم ممن تفضّل الإسلام عليهم بكثير من ألوان الخيرات والإحسان!

إننا لا نأمل من هؤلاء خيرًا وهم الذين قالوا على لسان وزيرهم "تشارلز كلارك" في كلمة له في معهد هيرتيج في ٢٠٠٥/١٠/٦: "لا يمكن أن تكون هناك مفاوضات حول إعادة دولة الخلافة ولا مجال للنقاش حول تطبيق الشريعة الإسلامية".

ولكن كلنا أمل في شبابنا المسلم التوّاق إلى رفع راية العدل في هذه الحياة التي خربها الظلم والاستبداد.

كلنا أمل في فتياتنا ونسائنا المسلمات اللواتي كن ولا يزلن منشأ للأبطال وقدوة للأمة في العزيمة القوية نحو نور القرآن والسير في درب خير الأنام.

إن التاريخ ليقف طويلًا أمام الجهود الجبارة التي أعطاها الإسلام للبشرية، وما قدمه للإنسان؛ لكونه إنسان بعيدًا عن دينه وجنسه.

المراجع

١. أوروبا والعالم الإسلامي.. التأثيرات الفكرية المتبادلة، بحوث في التيارات الفكرية. ثلاثة أجزاء، لمجموعة من علماء الأزهر: د. أحمد عجيبة، د. يحي ربيع ، د. رضا الدقيقي، د. يحي هاشم ، د. محمد محمد حسين ، د. محمود حمدي زقزوق، د. محمد شامة.

٢. فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجموري وات.

٣. شمس العرب تطل على الغرب، زيغريد هونكه.

٤. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، عز الدين فراج.

٥. الأبطال، توماس كارليل.

٦. حضارة العرب لغوستاف لوبون.

٧. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان.

٨. الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ١

القسم الأول:

الإلحاد!..... ٤

تحديد المفهوم: ٥

هل هو إنكار فعلًا؟ ٥

هل يقف قانون السببية عند علة العلل؟! ٨

الأدلة على وجود الله ١١

أولًا : أدلة حدوث العالم. ١١

أدلة أخرى على وجود الله: ١٣

سفسطة أم عقلانية! ١٦

هل نفي البديهيات العقلية يُعد أمرًا عقليًا؟! ١٨

هل من المعقول قيام الفعل بدون فاعل؟!..... ١٩

هل يُعد ترك أصل القضية _الذي هو محل الخلاف والنقاش_ إلى فروعها منهج عقلي سليم؟!..... ٢٠

(الدين) خرافة أم تعقّل؟..... ٢١

هل الدين أفيون الشعوب؟! ٢٣

الإرهاب بين الدين الإسلامي والمذهب الإلحادي ٢٦

هل يستخدم الإسلام القوة ؟ ٣٠

لا يغرنك عقلك! ٣٦

لماذا القرآن؟ ٤٠

هذا ما يتحدون به القرآن الكريم! ٤٤

الإنسان بين الاهتمام الإسلامي والعناء الإلحادي! ٥٤

فكيف اهتم الإسلام بالإنسان؟..... ٥٤

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (طفلًا): ٥٤

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (شابًا):..... ٥٦

مظاهر الاهتمام الإسلامي بالإنسان (شيخًا كبيرًا):..... ٦٠

الاهتمام الإسلامي بالعقل الإنساني:..... ٦٠

فكيف اهتم الإلحاد بالإنسان؟! ٦٢

القسم الثاني:

العلمانية.....٦٣

تمهيد ٦٤

أوروبا في القرون الوسطى..... ٦٩

وتتمثل مظاهر سيطرة الكنيسة على التعليم في عصور ظلامها الوسطى في الأتي: ٦٩

محاكم التفتيش: ٧٠

مراحل محاولات تحرر العقل الأوروبي من قيود الكنيسة في عصر النهضة: ٧٢

أسباب نقد الكنيسة في العصور الوسطى: ٧٤

من الحركات التي نقدت الكنيسة:..... ٧٨

أسباب الصراع بين العقل والدين المسيحي في القرن الثاني عشر:..... ٧٨

الإصلاح الديني (البروتستانتي): ٨٠

ثورة العقل الأوروبي على الدين المسيحي: ٨٠

نشأة العلمانيّة:..... ٨٢

حرص المستشرقين على علمنة الدولة: ٨٣

التأثير الإسلامي على الغرب..... ٨٧

(المستشرق مونتجمري وات) ٨٧

ومن الكتب التي رصدت أثر الثقافة الإسلامية على الغرب:..... ٩١

هل تركت الكنيسة الدولة الغربية للعلمانية فعلًا ؟ ٩٣

هل العلمانية هي طريق تحرير العلم من الدين؟ ٩٦

هل عمر بن الخطاب شخصية لن تتكرر؟..... ٩٧

السؤال الآن هو: ما الذي يمكن أن يقدمه الإسلام لإنقاذ المستقبل؟..... ١٠٠

الخاتمة ١٠٢

المراجع ١٠٣

الفهرس..... ١٠٤

محمد أحمد عبيد

كاتب وباحث في الفلسفة

العقلاني العربي الحديث مُـختلف تمامًا عن العقلاني الغربي من ناحية المنهج والموضوع والأسلوب والطريقة..

فعقلاني العرب قد ختم ذُروة علمه بختم الإنكار الغربي للحقائق الوجوديّة المـدعومة بالأديان، والتي تدور حول الإيمان بالحقائق الإلهيّة والقيم الأخلاقية والقضايا النبوية..

وكان منهجه في طريقته هذه كمنهج المولع دائمًا بتقليد الغالب؛ ليس لشيء إلا لأنه غالب وظاهر؛ يدعمه الإعلام وكثير من المؤسسات المؤيدة لأفكاره للتدليس على عامة الناس.

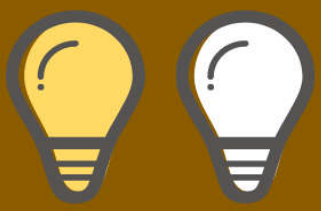

RIDA

RIDA EGYPT